نيرفانا

رواية

هند خليفات

WARD BOOKS

وزارة الثقافة

طبع بدعم من وزارة الثقافة

2020

" تنسج هند خليفات روايتها التي لا تشبه معظم ما قرأت من أعمال روائية، رواية الدهشة التي ستجد فيها جزءا من حياتك أنت أو ربما حياتها هي... حياة حدثت أو ستحدث ...

ستسمع أصوات أبطال الرواية وستميز عددا منها قد سمعته من قبل وتعرفه جيدا

...وبشغف ستتبع أحداث الرواية التي كتبت نفسها بين بيروت..الهند..البترا والسويد... هند خليفات وحدها التي تملك الجرأة على جلب الشخوص من رحم الخيال للواقع حتى تبدو الرواية مثل كائن حي يظهر وقت حاجتنا لقبلة الحياة عندما يشح الهواء الطلق"

الناشر

دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع

P.O. Box 927651 Amman 11190 Jordan

Tel. +962 6 5808 283 - Fax +962 6 5605 263

E-mail : wardbookjo@yahoo.com

نيرفانا

• نيرفانا / رواية

• هند خليفات/ كاتبة من الأردن

• الطبعة الأولى : ٢٠٢٠

• حقوق النشر والتوزيع محفوظة:

دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع
P.O Box 927651 Amman 11190 Jordan
Tel. +962 6 5606 263 - Fax +962 6 5606 263
E-mail wardbookjo@yahoo.com

• تصميم الغلاف : الفنان عمر ياسين

الآراء الواردة في الكتاب لا تعبرّ بالضرورة عن رأي الجهة الداعمة

وزارة الثقافة
طبع بدعم من وزارة الثقافة
2020

• رقم الايداع لدى دائرة المكتبة الوطنية: ١٤٨١/ ٥/ ٢٠٢٠
• ردمك ISBN 978 - 9957 - 632 - 72 - 4

هند خليفات

نيرفانا

رواية

WARD BOOKS

وزارة الثقافة

طبع بدعم من وزارة الثقافة

2020

الصدفة أن تكون حبيبًا، لكنّ القرار أن تكون محبوبًا فارًّا من وجه الحب..

« يقيس وجودَكِ بالرّبح والخسارة، أنت عندَه صفقةٌ عاطفيةٌ، وقبل أن يأخذكِ على محمل الجدّ، لا بدّ أنْ يُخضِع روحكِ المجنونةَ لدراسةِ جدوى. تعافَي أرجوكِ، ليس من أجلكِ؛ فأنتِ تقتاتينَ الخيبات، وتنمو روحُكِ من الوجع. تعافَي سريعًا؛ من أجل أن تخرجي ناجيةً من هذه الحرب، وأكتبَ عنها يومًا».

نقرْتُ أيقونةَ الإرسال، وأنا أتمتمُ، إنّها آخرُ مرّةٍ سأنساق فيها وراء تشظّيها الموسميِّ، «خلّيها هبلة ولا بتتعلّم». ومن خيبات رفيقتي (لارين) التي أغلقَتْ كل شيءٍ في وجه فُرص تعافيها من باب شقّتها، وهاتفها النّقّال، وحتّى مُعدِ قهوتِنا الصباحيّة كلّ أحَدٍ في مقهى (آماثيست) في قلب المدينة، التي كانت تشبهُها أو حتّى تشبهنا، مدينةُ «تشلَح» روحَها على البحر الأبيض؛ بيروت حيث الشطآن المالحة، الممزوجة بعذوبة الصخر، الذي يحمل جزءًا من حكايا هذه المدينة.

حاولْتُ أن أنفض قصص القرف العاطفيِّ، التي تكون لي فيها دومًا حصّةٌ وافرةٌ من الصديقات، وحتّى العابرات، كنتُ مؤهّلةً لذلك، امرأةٌ من برج الحوت، ناجيةٌ عدّةَ مرّات من الموت، ولديَّ قلب خارج الخدمة من سنين، لي إرث في الجينات من الأنباط،

وبضعة جينات من أقاصي البلدان الباردة، ماهرة حين أمنح أذنيَّ لفوّهات قلوبهنّ ولا أقتفي لهنّ أثرًا، أتركهنّ يتداعيْنَ كما يفعل رجل أوروبيٌّ متحضّر على كنبة طبيب نفسيٍّ.

تفقّدت بريد العمل، الذي لم يكن يحتوي منذ فترة سوى عروضٍ تسويقيّة، ورحلاتٍ سياحية ضلّت طريقها لبريدي، الذي لم يكن ينتظر سوى رسالةٍ واحدة، من مرسل واحد، لكن طال عليه الأمد.

أبعدتُ كلّ هذه التفاصيل عن سطح طاولتي المكتظّة بمواعيد مقابلاتٍ مع دُور نشر، وصفاتُ طهوٍ من مطابخَ آسيويّة، فناجين قهوة وشاي يصعب عليَّ تمييز تواريخ تحضيرِها، مِكبس رموش، أقراص من مستخلصات القهوة، وأخرى من خلّ التّفّاح؛ أردت أن أُوقِف هذه الحياة التي لم تكُ لي.

كلّ هذا يبدو ترفًا إنسانيًّا حين أدرتُ التلفاز على نشرة الدّم، دماء في بغداد، وشلّال منها في سورية، وحتّى مصر التي كانت محروسةً للفرح العربيّ، وموعودةً من الله بأن ندخلَها آمنين، تركت الفوضى الخلّاقة للدّم فيها بصمةً ومطرحًا.

شعرت بالغثيان من مشهد الدّم؛ كيف استحال مشهدًا مألوفًا للغاية في عالمنا العربيّ، واستفزّتني ابتسامة مذيعة الأخبار، وهي تتنقل بين الدّم اليمنيّ والدّم اللّيبيّ، وكأنّها تقرأ خبرًا عن عالم التكنولوجيا لا عالم اللّحم والدّم والحنين والذّكريات.

«هو ليس يومِي بالتّأكيد!» قلتُها بصوت عالٍ؛ طبعًا ليس يومِي؛ لكن هل كان البارحةُ يومي أيضًا؟ أشكّ.

صوت جدّتي من الغرفة المجاورة، وهي تدندن بأغنيةٍ لم أفهم منها سوى كلمة «جناح»، جعلتني أغبطُ ما بها من نعمة النّسيان المكتملة، في يوم مثل هذا سيكون (الزّهايمر) نعمةً محسودًا عليها.

ذاكرتكَ الضّخمة بكلّ دهاليزِها، هذا الكمّ العظيم من وَشوشات الطفولة الصلبة، حكايا الإرتحال البدوي اليومي في جنبات مدينة من ورد وصخر، الأغاني، الكتب، القصائد، الأرقام، أسماء أحبّائك، أطفالك الذين أنجبتهم والذين لم تنجبْهم، نباتات شرفتك، صفعةُ جدتك، وأُولى الخيبات، قبْلاتكَ الأولى، رجفاتكَ البكر، صندوقكَ الأسود، كلّ هذا يُنسى تمامًا ويسمّى (زهايمر)، كأَنّ العناية الإلهيّة تقرّر أنّ نقرة (فورمات) لذاكرتكَ قد حان وقتها؛ لتبدأَ من جديد، كائنًا فريدًا شريدًا، كانت هذه ببساطة جدّتي شكريّة.

في عقدها الثامن، حيث بقايا الضوء الذي فيها، وتجاعيد غزت حتى باطن كفيها، رائحة أدويتها التي تملأ حجرتها، قوانين الطبيعة التي تخذلها كثيرًا ووفيرًا، عيناها الغائرة تحت جفن متهدل، وشامة بارزة في منتصف خدها الأيسر، لو كنت أمتلك مهارة الرسم يومًا لرسمت ملامحها المميزة بأبسط خطوط قادرة أن تجسد وجهها.

كنتُ أشبهُها في فصيلة الدّم، وفي تاريخ الفلك الذي ترك بصمته في روحها كحوت، سريعة العطَب العاطفيّ، جسورةٌ

لاقتحام قيعان المحيطات، لكنّ نوبةً واحدةً من الكآبة كفيلة بانتحار الحوت والهجرة إلى الشاطِئ، قُرط على شكل ورقة شجر قد ينشلني من الانغماس في الحزن، وأغنية مثل رشفة شاي قد تكون سببًا كافيًا لتأرجح مزاجي، وشاح رخيص منسوج من خيوط ملونة جدير بأن يجعلني أبتسم. كنت ريفية الطّبع بما يكفي لأبتهج من أبسط التفاصيل، وناضجة جدًّا كي لا أُظهر هذا.

تفقّدتُ شاشة هاتفي الصّامت معظم الوقت، هناك إشعارٌ بأنّ خدمة الاتّصال متاحة مع رفيقتي (لارين). بدأتُ أشعر أنّ كلماتي تلك لم تُضِئ فقط شاشة حاسوبها بل ربّما قلبها وبصيرتها قليلًا، تردّدت بأن أعيد الاتّصال بها؛ لأنّي أؤمن أنّ ترك مسافة اختمار الكلمات بفعل الزّمن أفضل من إضافة كلمات جديدة. أغلقت هاتفي واستسلمت لنوم «الصّوفا» التي يبدو أنّ جسدي ترك فيها مكانًا غائرًا صار مثل قالب جاهز لي، لي فقط.

في الصّباح تتوزّع حصص السعادة والتعاسة، كلّما كنت في كامل قيافتك الروحية في استقباله مبكّرًا، سيكون من السّهل أن تفاوض على نوع حصّتك

تأخّرَت عليّ الشّمس قليلًا في ارتداء ثوبها الذّهبيّ، كنت أراقب ظهورها الملكيّ، سماء بيروت الصافية، ومن بين العمارات القليلة التي تقابل شرفة شقّتي أطلّت أخيرًا، حيث أشرفية بيروت، كميّة من (السيرتونين) دفقت في جسدي، شعرت برغبة جديدة في أن أغنّي، أن أُعِدّ فنجان قهوة في ركوة القهوة المهجورة، أن أنظّف حافّات نوافذ البيت وأزيل الغبار عنها، وربّما ليست النّوافذ فقط!

قهوة بلا سكر -بوجه - وأيضًا فنجان حليب دافئ لجدّتي شكريّة، وكأس شاي حلو لـ(داندي)؛ التي تركت حقول الشّاي في بلادها، وجاء نصيبها كي ترافق شكريّة وتعتني بي أيضًا في بيروت. تأرجح رأس (داندي) كالعادة، وقالت باللغة الوسيطة التي صارت بيننا:

- أنت كويس مدام.. شكرًا كثير!

رددت عليها بابتسامة: تستاهلي

الأغاني تمور في دمي، وكذلك مشهد مساحيق التّجميل على التّسريحة، وقميصي الأخضر على المشجب، يتوسّل أن يخرج لي: «اخرجي يا هُتان، ليس للمجلة، ليس لمهمّة إعلاميّة، لكِ وحدكِ».

كم تبدو الحياة في بيروت بسيطةً في الظّاهر لفتاة ملتبسة الهوية.. فتاة من «البدول» مثلي، كان أول وعيها لبداية تشكل هويتها عن والدها، الذي ولد في قرية «أم صيحون»، لا تخشى أن تعيد أو تشرح ماذا يعني أن تكون من بدو «البدول» في مدينة مثل بيروت، بقدْر ما تخشى أنّ «بداوة» طلاء أظافرها قد لا تليق بمدينةٍ كان الجمال رأس مالها وهُويّتها.

في جنوب الأردن، حيث قطعة الصخر وكنز الرمل الوردي، حيث ولد والدي ليجد نفسه ينتمي «للبدول»، كان يروي لنا كيف فتح عيونه على الصخور، ووجد نفسه «دواج» في أروقة مدينة نبطية، مدينةُ قاسية التضاريس مثل وجهه، حيث عاش عقدين تقريبًا في هذه المدينة السحر، قبل أن يلتقي والدتي (بريجيت) السويدية التي كانت تدرس تاريخ الشرق في بلادها، نعم إنها الأقدار المجنونة التي تجذبها الأماكن والتجارب الأكثر جنونًا.

اِلتقت (بريجيت) بوالدي عقيل ذات ظهيرة، كانت فيها الشمس سيدة المدينة الوردية، أمي القادمة من مدينة (فالون) قلب (السويد) الصناعي ومنجم النحاس، مدينة من مدن (السويد) باردة المواسم، حيث الصيف الثمين والقصير، والشتاء ذو الحظوة الأكبر طوال العام.

كان هذا في نهايات السبعينيات، حيث طلاقة والدي التي أبهرت السائحة السويدية، التي كانت البترا في مقدمة محطات

السفر التي أعدتها منذ سنوات، وتوالت اللقاءات على مدى ثلاثة صيفيات، حيث كانت قصة تصلح لكتابة فيلم حول لقاء الشرق والغرب.

رحل عقيل من البترا مع (بريجيت) التي تكبره ببضعة أعوام، وكانت أول مرة يطير في سماء الأردن نحو غموض جميل حيث السحر الأسكندنافي، تاركًا خلفه تاريخًا مليئًا بالبدواة، وذاكرة مكتظةً بعوالم البترا المدينة، الناس، السياح، والسحر النبطي، الذي كان يجيد تفكيك رموزه في كل مرة يرافق مجموعةً من السياح، مستعرضًا قدراته العالية في السرد، ولغته الإنجليزية التي تعلمها بين طيات الصخر، وتدفق الزوار من دول عديدة.

عقيل الفتي النحيل الأسمر، الذي يمتزج العسلي والأخضر في مقلتيه، وتشوبه سمرة نقية لوحت وجنتيه، وحنجرته التي كانت تصدح الأغاني العربية والإنجليزية، حطَّ ذات صباح كانوني في مطار (استكهولم)، حينها دمعت عيناه؛ ليس من شدة الهواء البارد الذي كان أول من استقبله هناك، بل من غربة الألوان والتفاصيل..

غابة كثيفة فيها مدن، كان والدي يصف بهذ الجملة مملكة (السويد) ومدينته (فالون)، التي سكن فيها مع والدتي بعد إتمام زواج مدني، عمل خلالها في مكتبةٍ كانت تملكها جدتي، وبعدها في مقهى صغير، وكانت الحياة هناك أكثر تكلفًا لوالدي من حياته البرية، التي كان يعيشها قبل أن تقع (بريجيت) في حب هذا البدوي

النحيل، أو ربما في حب روحٍ حيةٍ مليئةٍ بسحر المدينة التي أبهرتها من أول نظرة .

قاطع والدي سجائره بعد أقل من شهر من وصوله إلى السويد، وبدأ تعلم أن يقوم بفرز نفايات المنزل، وتعلم اللغة السويدية من جار عراقي سبقه (للسويد)، الغربة مرعبة وأن تجد نفسك تهجر المدينة التي تفتحت عيونك عليها إلى مدينةٍ محفوفةٍ بسيقان أشجار الصنوبر والتنوب الباسقة، مدينة يسطو فيها ظلام الليل على أطراف النهار بكل جراءة، وتحتاج فيها لغةً جديدةً ودماءً جديدة، حتى تستطيع أنْ تعيد الدفء لروحك التي جاورت الشمس لسنين طوال.

هجر «التتن» والتبغ، وأستبدلها (بالفيكا)، حيث استراحة القهوة الشهيرة في المجتمع السويدي، بضعة أقراص مخبوزة بالقرفة أو الزبدة، أو بسكويت مصنوع من الزنجبيل، أو عجينة اللوز ترافقه القهوة أو الشاي؛ لمواجهة برد الأيام والأمزجة هناك .

عاش والدي مع والدتي هناك قرابة خمسة أعوام، كانت تحتاج منه كثيرًا من الجد والتعلم، ومن والدتي كثيرًا من الصبر والتحمل على تقلبات مزاج هذا البدوي، لم تكن قصةً وردية تمامًا، بل شابها من برد البلاد شيئ من الفتور، الأمر الذي لم تكن (بريجيت) مستعدةً له. أنجبت خلالها والدتي شقيقتي عائشة، وبعدها بعامين جئت للدنيا، وجاء مرض القلب لوالدتي الشابة، ورحلت دون أن أذكر تفاصيل عميقة عنها.

أظلمت الدنيا في عينيّ والدي، وقطع على نفسه عهداً أن لا يكمل عامًا واحدًا بعد رحيل والدتي عائدًا لبلاده، فلا يحنُّ على العود سوى قشره، كما كانت جدتي شكرية تقول دومًا.

عاد والدي عقيل مع إبنتين، واحدة في الرابعة والثانية في عامها الثاني. أذكر أولى تجارب طفولتي هناك في بيت العائلة الكبير في قرية «أم صيحون»، منظر عتبة البيت المليء بالأحذية البلاستيكية، والأصوات التي لا تهدأ ليلًا ولا نهارًا.

كان والدي يصارع الكآبة بتعليم شقيقتي عائشة اللغة العربية، حيث كانت سريعة التعلم، ترافقه منذ الصباح في جولاته كدليل سياحي للمجموعات، ويعود في المساء إلى بيت العائلة حيث جدتي شكرية في عزِّ صحتها، وأنا أنتظره محملًا بالحلوى مما يشتريه أو يهديه السياح. كانت فرحته كبيرة دومًا حين يلتقي بسائح من (السويد) على ندرتهم، حيث حلم شتوي قصير ومضى. المساء في بيت العائلة في «أم صيحون» مليء بالناس والسهر، وكان والدي سيد الجلسات؛ حيث يسرد الماضي الذي عبر بسرعة، ويتحدث عن (بريجيت) و(الفيكا) و(السامبو)، وعن الموسيقى والأبنية هناك.

كبرت، وأشتد عودي قرب جدتي شكرية التي كانت أمًا لي، وتعلمت من جدي قراءة القصائد النبطية، التي كنت أرددها دون أن أفهم معناها. أصر والدي أن يكون لنا طريق مختلف، فالتحقنا بالمدرسة، وبعدها انتقلنا لمدرسةٍ حكوميةٍ كبرى في معان، توقفت

شقيقتي عند الثانوية؛ لتتزوج سائحًا أستراليًا، وتنتقل معه هناك، وأنا أكملت دراستي في جامعة اليرموك في تخصص الصحافة والإعلام.

سنوات من الكدّ والتعب والنمو الفكري، أثمرت بأن نلت بعثة لدراسة الماجستير في الجامعة الأمريكية في بيروت، حيث أصرَّ والدي أن ترافقني جدتي هناك، تحملت فيها الدراسة والعمل في واحدة من المجلات المرموقة.

لكنه الآن .. حيث أنا التي ترونها في فترة «الحمية العاطفية»، لا أغاني حنين ولا موسيقى (ياني)، ولا حتى جوقة (أندريه رو)، ولا أغاني (أيميلو هارس)، كلّها على قائمة الممنوعات في حجرة مركبتي، الأغاني تغدو قِطعًا من العذاب المنظّم، وأنت تقود طريقك نحو الجهات الّتي يغدو فيها الضّياع الجهة الأكيدة.

يبدو أنّني بدأت التعافيَ، أو ربّما هذه المناعة المكتسبة من تجرِبة رفيقتي (لارين)، التي جعلتني أرى في كلّ امرأةٍ تنشر قلبها للرّيح مجرّد حمقاء، وتحتاج رعايةً نفسيّة مكثّفة، (لارين)، التي بدأت قصّة حبّها حين انتهيتُ تمامًا، وانتهت قصّتها حين بدأتُ بالتّعافي.

كنّا مراسلاتٍ صِحافيّات في العراق، وقبلها في وكالة صحفية دولية تعمل في بيروت. أن تكون مراسلًا للحرب لا يردع قلبك أبدًا من الوقوع في الحبّ؛ أصلًا في الحرب، أنت تسلّم أمرك لكلّ لحظة في الحياة إنّها لحظتُه الأجوَد، ترى هشاشة الحياة ماثلةً أمامك؛

كيف أنّ قذيفة نارٍ تُلغي كلّ تاريخ وجودك، وأنّ كلّ دروع العالم وتحصيناته لا تمنع من أن تختارك المنيّة؛ أنت لا سواك في جزءٍ من الثانية، في الحرب تحمل روحك على كتفك، في الحبّ تحمل روحين على كفّك.

شهدْتُ هناك، كيف يمكن أن تتحوّل امرأة لا تهجر سجّادة صلاتها لسلعةٍ تباع وتشترى، لا كفر أكبر من الحرب، ولا فتنة أعظم من أن تجابه الموت اليوميَّ، أن تقامر كلّ يومٍ بروحك، وأن تكون نسبة الموت أعلى حظوظًا. كتبت تقارير طافت العالم عن تحوّلات الحياة والدّين في مناطق الحروب، وعشتُ في خيام اللّاجئين؛ حيث يتحوّل الرّجل فيها إلى سمسار، ألم أقل لكم أنّ الحرب هي الشيطان الأكبر؟

كان يفترض أن أموت هناك بطلقةٍ أو قذيفة (آر بي جي)، أو حتى كرهينة، تضطر الشبكة التي أعمل بها لأن تدفع فديتي، لكنّ رسالةً واحدةً قامت بذلك، بضعة كلمات جعلت كلّ قوّتي كالعصف المأكول.

أسبوع من النّوم المتواصل في الفندق الرّخيص، الذي لم أعتَدْ أن أبقى فيه أكثر من يومين لغايات أمنيّة، لكنّي فعلت، لأنّ الأمن لم يعُد حينها من أولويّاتي، ولا السّلامة غايتي، كنت أريد هذا الموت المُشتهى، أن تموت حبًّا في بلد الحرب، أن تنتهيَ من وقْع سطور إلكترونيّة لا من رشّة سلاح أتوماتيكيّ، وأن تنتهيَ هكذا بلا جثّة

ممزّقة بل بكامل هندام جسدك، والحرائق الدّاخليّة في روحك، ألّا يظهر اسمك في شريط الأخبار كخبرٍ عاجلٍ، بل أن تتناقله الوِكالات خبرًا خفيفًا في هامش النّشرة أو قد لّا تفعلً.

بعد تلك الحادثة، أعادتني الشبكة التي كنت أعمل لصالحها إلى بيروت، فلم يعُد بإمكاني تسليم تقاريري في الوقت المناسب، ولم يكُن بمقدوري الامتثال للتحفّظات الأمنيّة التي تفرضها الشبكة على مُراسليها في التنقّل والإقامة، عدتُ إلى بيروت، و(لارين) بقيت، وكأنّي تركت قطعةً من قلبي هناك.

احتجت شهرًا كي أتخلّص من جاذبيّة الوسادة لرأسي الثّقيل حينها، وشهرين كي أبدأ الحديث مع جدّتي التي كانت في عالمها الآخر، لكنّها تمكّنت من تمييز وجهي، وانهمرت الدّموع من عينيْها حين رأتني، وتابعتْ بعدها العبث في دمية كانت قد جذبتْها من يد بنت الجيران يومًا، جدّتي لم تكن تثير حرجي فقط، بل شفقتي.

ومثل حادثٍ على طريق سريع تداعت حياتي رأسًا على عِقب؛ الرجل الذي دخل حياتي بالصّدفة قرّر القدر -أو ربّما كان القدر بريئًا من رداءة معادن أرواحنا- أن يَعيث فيها خرابًا، ومن هنا تتداعى سيناريوهات الوجع في حياتك، حتّى تذيقك الحياة نارًا تستحقّ من بعدها أن يكون لديك ما يمكن أن ترويَه، أو حتّى تموت يوميًّا من أجل أن تلغيَه من ذاكرتك.

امرأة جريحة في روحها، تنزف كلّ ليلةٍ حبرًا على الورق، ومرّات أكثر، تنهمر أصابعُها بنقرات متتالية على لوحة المفاتيح، تقرّر أن تروي تفاصيل الجريمة.

كانت ثلاثة شهور بعد تلك الجريمة المروّعة التي مسرحها قلبي وروحي، ثلاثة شهور حتى تتخلّى عنّي الوِكالة الإخباريّة التي كنت أعمل فيها في بغداد حينَها، فلم أعد بذات الشّغف الإعلاميّ، انطفأت جذوتي تمامًا، من مراسلة لامعة يتقدّم اسمها نشرات الأخبار الرئيسيّة في عدّة فضائيّات إلى موظّفة تقليديّة تتفقّد بريدها مرّةً كل يومين، وتقرأ الأخبار لا تصنعها... كان عليّ النّهوض من جديد.

في فترة إنهاء خدماتي كانت (لارين) قد عادت من المَهمّة.

- لكِ ما عرفتك، شو بك زايد وزنِكِ؟

- (لارين) بكفي.. مش ناقصة كلام.

- at least that’s 10 kilos !

- يمكن ملابسي تبين أني سمنت.

- لا وحياتك.. سمنانة كتير!

- (لارين).. ما لي نفس بالحياة، كل شيء خِرِب.

- ما تقولي هُتان هَيك، You are strong enough to stop that

في الصّباح، نجتمع في مقهى (آماثيست)، في فندق (فنيسيا)، حيث الزجاج الملون الذي يعكس ضوء النهار على شكل ضوءٍ

بنفسجي، وفي المساء، نتمشّى على الرّوشة. كنت أحتاج (لارين) كي تعيد توضيب خزائن روحي، امرأة على حافةِ الأربعين بلا عملٍ ولا حبيب، بلا أمّ أرمي أحمالي العاطفية على كتفها، وحتّى جدّتي التي عوضتني بعض حنان أمّي -التي رحلت قبل أن أختبر منها معنى الأمومة- عادت طفلة، تفسد أطباق الطّعام، وقد تعبث بمستحضرات العناية الخاصّة بي.

(لارين)، كانت فراشة الصباح، التي لا تفعل شيئًا جوهريًّا سوى أن تنثر بهجة أجنحتها حول كلّ من يعرفها، كنّا نستعيد ذكريات التّقارير التي كتبناها في مناطق الجروح الإنسانيّة، تنهمر دمعة من أعيُننا، ونحن نستذكر فاطمة، التي شاهدت قذيفة هاونْ تخرج دماغ طفلتها من جمجمتها، ونستذكر لهجتها العراقيّة، وهي تبكيها قائلة: «عفت كلِّ شيٍ يا معوّدات، عقب ما شفت حبّة قلبي تتلوّى من الألم وتموت مقابيل عيني مثل قطو يطالعٍ بالرّوح، فد شي ما أقدر أوصفه ولا أتحشى بيه».

تذكّرتُ كيف انقطع الإرسال يومًا، لا هاتف محمول يعمل، ولا أجهزة الحواسيب، وكيف بدأت (لارينْ) تخفّف عنّي قلقي بأن تغنّي لي أغنية:

« يا طِيور الطايرة مُرّي لهلَي
يا شمسنا الدّايرة ضوّي بهَلي
وسلّميلي وغنّي بحجاياتنا

سلّميلي ومرّي بولاياتنا»

كان انقطاع خدمة الإنترنت يشبه خوفي من الشتاء، حين تقلُّ نسبة الضّوء في دمي، ويجتاحني الخوف من أنْ لا يد تطرق بابي، وأن تتعمّد غيمة سمينة مُثقلة بطبقات الثّلج أن تحول بيني وبين الطّريق، كان الشتاء عندي «بروفة» من الموت، وكانت «متلازمة الخوف من الشّتاء» من ضمن أنواع الكآبات التي يبدو أنّها تجدني حاضنة خصبة (بالنوستالجيا)، والأغاني، واللّوحات، وفناجين الشّاي، ومناديل الدّمع الرّطبة.

تداهمني (لارين) بفيض قلقها عليّ وأنا التي بدأت الذّبول، وتســألني:

- هُتان؛ من وقت آخر رسالة من سراج إلك بالعراق ما بعت لك شي بعدها؟.

- لن يرسل.

- شو بيخليكي هيك متأكدة؟

- بعرفه إمليح.

- لو اتعرفيه (إمليح)، كان فيك تتوقعي منه يرسِلك هيك شِي وأنتِ في تِمّ الموت.

بعض الجمل يرسلها الله لك؛ كي تعيد تصويب مسارك، وجملة (لارين) لي ضمن مرحلة التّعافي كانت رسالةً سماويّةً كي أُعيد النّظر في انغماسي في هذه العلاقة، حينها فكّرت أنّي قد أكون متطرّفة،

وأعدْتُ التفكير في مَن التقيتُ من متطرّفين خلال عملي الصّحفيّ، ممّن يرَوْن في اختلاف ثوب شخص ما مدعاةً لقتله، التطرّف ليس بالدّين فقط، إنّه في الطّباع، وأنا كنت متطرّفةً عاطفيّةً ومتشدّدَة في مقاييس انغماسي التّام في هذه العلاقة، التي جعلها تطرّفي دِعامةً لكلّ حياتي، خرج سراج منها، وانهار بناء حياتي عقِبه؛ جعلتُه حجر زاويتي، وهو جعلني تمثالًا رخاميًا على باب حديقته، تعثَّر به يومًا وانكسر، ثمّ عاود مشيه نحو الباب وخرج.

المتطرّف الذي كتبتُ عنه تقريري الذي عرضَته صحيفة (الغارديان)، كان يرتدي عمامةً تمنع عنه رؤية الاختلاف وقَبوله، وكان يرى كل امرأةٍ مشروع «زانية» في الوقت المناسب، أمّا أنا، فلم أكن بعمامة بل «بعمامةٍ عاطفيّةٍ» تملأ دماغي فتُحيل هذا (السراج) سببًا كي أتنفّس من أجله كلّ صباح، ومَدعاةً كي أتناول أقراص الفيتامينات الكثيرة، ومحفّزًا رياضيًا يجعل من تمرين المشي على آلة معدنية صمّاء متعةً، كان مُحرِّضي ومحرِّري الفعليّ، كلّ تقاريري الإعلاميّة التي كانت فيها الثانية، وأجزاؤها جزءًا من نجاحها، وسبْقُها كان بريد هذا الرجل وجهةً أولى لها.

سراج حينها، كان كَونيَ الأعظم على مدار ستة وثلاثين شهرًا وعشرين يومًا وخمس ساعات.

إعادة إعمار مدينة خارجة من رماد الحرب أسهل بكثير من إعادة إعمار قلب

تؤجّلُ الحياة وتضعها على قائمة الانتظار كي تُقبِل على دنيا ليست لك، حياة يختزلُها شخصٌ واحد، هذا العالم الذي فيه ثمانية مليارات؛ روح وقلب وجنون، يصبح بضيق ثقب إبرة، حين نقف على مقصلة فراق ليس له أيُّ ترياقٍ سوى أن تحتضر ببطْء أنت وذكرياتك.

سراج؛ رجل لهذه الدنيا تمامًا، روحه متطايرة مثل غيمة عطر، أينما عَبرَت تترك خلفها فيضًا من دهشةٍ وسحر، لا يتمسّك بشيءٍ سوى بالمساحات القادمة من الحياة والعمر، كانت علاقته بالماضي قطيعة، لو حدث يومًا وهطلت روحه وتداعى غيثًا على قلبي، لابتعد بعدَها وعبرَ لسماءٍ بعيدة، ورمّم نسيج غيومه بذرّاتٍ جديدةٍ، كان رجلًا لا يمكن أن يتوقّف عند شيء، كان مسكونًا بالعبور.

انتهى سراج من فتيل روحي، حين أرسل إليّ رسالةً عبر بريدي الإلكتروني بتاريخ الخامس من آيّار، وأنا في مَهمّتي الصحفيّة، التي استحالت حربًا رابعةً على عالمي، عالمي وحدي.

قبل أنْ يدخل سراج عالمي، ويفسد ما فيه من رضا وهدوء وحتى تصالح، كنت مشغولةً مع صديقتي (لارين) الّتي كانت بطلة الوقت، والتفاصيل، وكنت قد أنهيت مساعدتها في ترميم

روحها من قصةٍ عابرة، كادت أنْ تطفئ ما فيها من توهّج جميل، أنا «المعلمة» و«القادرة» -على رأي (لارين)- أُصاب إصابةً بليغةً، ياه من الدّنيا!

كانت (لارين) حين ولوج قلبها للمرحلة الخضراء، تحوّلت من الطّفلة الشقيّة إلى الأنثى الأقلّ صخبًا، كنت أشعر كيف أنّ لمعة عينيها صارت أكثر وضوحًا وهي تحدّثني عنْ ذلك الرّجل، وتترك أوقاتنا معًا لتمنحَها بكلّ كرم وسخاء للقادم من عالم الطّهو المترف، ليطهو لها حياتها من جديد على نار هادئة. أن تقع المرأة في عشق الطّهو هو أمر تقليديّ، لكنّ امرأة فاشلة في الطبخ مثل (لارين) تقع في عشق طاهٍ، هو الأمر غير التّقليديّ.

لا أذكر أنّها أتقنت يومًا طهي أرزٍ مسلوقٍ، وأصعب طبق أعدّته لي يومًا كانْ «شعيريّة مقليّة» جاهزة، وكانت تجتهد في التفريق بينْ الملح والسّكّر، لكنْ، كلّ هذا يبدو أنّه أهّلها لتَضيع في غياهب عالم الطّهو بكلّ تفاصيله مع الطّاهي الشّهير كُرام.

كُرام الذي عثرت عليه (لارين)، وهي تقلِّب (ريموت) التلفزيون، بين بحثها عن مادّة تسلية تقطع بها الوقت، كان يقدّم وصفة (الكالاماري مع الأرزّ المكرمل)، اتّصلت بي حينها قائلةً:

- هُتان؛ عمرك سمعتي بالأرزّ المكرمل؟

أجبتها: لا. لكن أعرف الأرزّ «المسبّك» و«المشخول»، بس«المكرمل» هاي جديدة!

ردّت (لارين) بدهشة: مش الغريب الرزّ والكراميل، الغْريب هَيدا الشّيف الّلي هلّأ عَمْ شوفو ع «فتافيت».

- شو فيه يا بنت؟

- كأنّه نازل من حِلِم يا هُتان، حَ أتعرف عليه.

أنهيت المكالمة، وكنت أعرف أنّ (لارين) لا يكبح جِماحها شيءٌ، وكنت متيقّنة أنّها الآن بدأت رحلة البحث والتحرّي، وأنّه خلال ساعاتٍ، ستكونُ لديها سيرتُه الذاتية، وتحقّق اليقين، وتجاوزه حين دعتني يومًا لحفل عشاء يُعدّه كُرام في مزرعته في رأس بيروت.

كما تخيّلته تمامًا من حديثها عنه، كثير من الضّحك، قليل من العمق، ونرجسيّة تشعر أنّها تكاد أن تجعله أُنموذجًا، كان العشاء الأوّل، واللّقاء الأوّل الذي رتّبته (لارين) كي ألتقيَ به؛ لأنّها تثق برؤيتي دومًا في قراءة قعر الفنجان.

كانت المائدة عبارة عن لوحة تجريديّة؛ كثير من الورق الأخضر والأعشاب، وقليلُ من قطع السّلمون الّتي ارتسمت على شكل طيّاتورديّة، لم يفسد هذه اللّوحة الفنيّة سوى اندلاق كأس الشّراب الأحمر من يد (لارين) على شاشة قماش الطّاولة العاجيّ، ارتباكها لم يكن من تراشق اللّون الأحمر على بياض القماش بل من علامات الاستياء الّتي طفت على وجه هذا الـكُرام.

دقيقة صمت، قطعت الخطّ الفاصل بين غيمة الضّحك، والحديث المسترسل عن جولات هذا الشّيف الشّهير وبطولاته،

التي كانت من محارٍ وقرفةٍ وقريدس وأوراقِ اللّيمون، وبين الارتباك الذي كشفَتْه ملامح كُرام. تمالكت (لارين) نفسها، وأعادت توضيب أغراضها، وأنهينا تلك الأمسية بأحاديثَ باهتة، بلا رّوح.

في طريق العودة، لم تتكلّم (لارين) إلّا حين دخلنا شوارع المدينة المأهولة بالنّاس، شاهدت هاتفها يُضيء وينطفئ، وهي لا تفعلُ شيئًا سوى التحديقِ في الأفق البعيد، كأنّ انزلاقة الكأس من يدها الصغيرة، كشفت كم هي أمام وهمٍ ليس له من كرم المشاعر سوى ما في اسمه.

- هُتان؛ ما فيّي كمِّل معك للبيَتْ، ح إرجع شقّتي، نزليني هون بليز.

استجبتُ لوجعِها، ونَزَلتْ، وكأنّها تجرُّ جسدها، يا الله؛ ليت أكتافنا تستطيع التّظاهر مثل ما تفعل أفواهنا، الأكتاف هي الجزء الأكثر صدقًا في تركيبة الجسد الذي يعبُرُ هذا الكون وسَطَ كثيرٍ من أمواج الخيبات وصقيع الخذلان، هذا الكتفُ الذي شاهدْتُه في أبي حين كان يذكر رحيل أمّي، أنا المرأةَ التي تُجيد قراءة لغة الكتف، ليس ذاك الكتف الذي يصفه العرب كوسيلة للمنّ والتّفاخر بحكاية لحم الأكتاف والخير، الكتف الذي ليس من لحم ودهن، بل ذاك الكتف الذي يؤرّخ انتصاب العنق وانحناءة الجذع في مواجهة هبوب رياح العمر.

كانت (لارين) قد نسيَت هاتفها المحمول في مقعد الكرسيّ، لكنّ العودة في مثل هذا الوقتِ لمكانِ شقّتها قد لا يكون خيارًا مناسبًا، أرسلتُ لها من هاتفي رسالة إلكترونيّة على بريدها، توقّعت أنّها ستنهي هذه اللّيلة التّراجيديّة بنوم عميق.

حين وصلتُ بيتي، كانت جدّتي في كابوسِها السابع، النّوم لديها عبارة عن نوبات من الكلام والأنين وأحيانًا الصّراخ، كان هاتف (لارين) ما زال يومِئ برسائل متتالية، لم أستطع أنْ أقفل الهاتف أو ربّما لم أُرِدْ أن أقفله؛ كنت أريد أن أشارك في عقاب هذا الكُرام على طريقتي، كانت الإشعارات على شاشة هاتفها تظهر مقدّمة الرسائل التي كانت تنهمر منه، من سوء حظّ فضولي، أنّها كانت مكتوبةً بالفرنسيّة، اللّغة التي لا أعرف منها إلّا ثلاثين كلمةً تقريبًا.

كنت سعيدةً في كلّ مرّةٍ يرسل رسالة لها، وأتمنّى لو كانت لديَّ وسيلةٌ للوصول إليها وهي في قمّة خيبتها عقِب تلك الأمسية، كي أرى نيرانها تنطفئ مع كلّ رسالةٍ لا جواب لها، لم يكن للخيبة ترياق أكثر من تجاهل الرّدّ عليها، فلا عتاب يليق بحجم عذاب يسبّبه لك عزيز أو من هيّأ لك العمر أنّه عزيز.

ماذا يعني أن يندلق من يدك كأس شرابٍ يفسد بياض القماش، حتى لو كانت تلك المائدة التي أعدَدْتها هي عملك الفنيّ الثّمين وحتّى الأخير، نحن لا نقدّم لمن نحبّ الكؤوس المرمر، ولا المناديل الحريريّة المذهّبة، ولا حتى الأطباق الموقّعة من القرن الثامن عشر،

نحن لا نقدّم محبّتنا على شكل شراب فاخرٍ، وعلى صنف لحم مطهوٍّ بعناية، نحن لا نحتاج هذا الورد المنسّق في قلب المائدة، نحن نحتاج هذا الودّ الذي يحيط بكلّ جلسةٍ تجمع أحبابًا. كان حوارًا داخليًّا يراودني حتى أطفأني النّوم.

تفيق على مقطع من أغنية تغنّيها روحك... تستذكر كلّ حرف منها:

«مع إنّه خلصْنا أنا وايّاك
مفروض تنساني وأنا أنساك
الأوراق صِفرِ، وكبرنا بالعمر
وما عاد في شي إسمو أنا واياك
من كِتر القهر أنا واياك ما بدي إنقهر مرة جديدة»

بعض الأغاني، سيَر ذاتية لأعمارٍ عشناها أو اختبرناها، «معلومات مش أكيدة» كانت فصلًا مهمًّا من عمري، وحين غنّتها لطيفة كرحبانيّة، كتبتُ يومَها في الصحيفة التي لم تعتدْ منّي سوى تغطيةِ النّزاعات وقصصٍ من مناطقَ الحروب، كتبتُ عنْها في افتتاحيّة القسم الثّقافيّ.

«لم يكن الحبّ يومًا وِجهتي، كانت الحرية هي القطب الذي أعدو نحوَه، كنت أخاف من هذه القُوى التي يمكن أن تُعيدَني إلى قفص العبوديّة، لهذا كان الحبّ في عُرفي مرضًا أقاومُه بكلّ ما أوتيتُ من مناعة، وتعب، وسفر، ومطاردةٍ، وإتقانُ الأشياء، وانهماكٌ في كلّ شيءٍ ،إلّا في الالتفات لِكمّ الوَحدة التي تنهش روحي، لكن اليوم، التونسية لطيفة تُعيد توضيب شهيّتي للأشياء وتسلّم مفتاح شقّة قلبي نحو الجار الذي لا يأتي».

هُتان عقيل

عبرَتْ بالمقال أقاصي الأرض، وهي تقابل تفاصيل خبر عمليّة إرهابيّة وقعت في (كراتشي)، في مدرسةٍ للجاليات الأجنبيّة، مدرسة يؤمّها طلبة المرحلة الابتدائيّة، باتت هدفًا سهلًا للإرهاب الأسود، هل قلت إنّ الإرهاب أسود؟ لا أعرف لونًا للدّمويّة، والأذيّة أكثر من اللّاضوء المطلق، والعتمة التي يختفي منها تمامًا أيُّ ضوءٍ أو حياة.

كنت أفكّر دومًا كيف أنّه في قعر كلّ روح هناك بؤرة تجتمع فيها الشّيفْرة السريّة لكلّ كينونة، وأتخيّلها ثُقبًا أسودَ يمتصُّ أيَّ جرم أو نجم مُضيء، وهي تلك الأرواح السوداء التي نسمّيها الإرهاب، لكنّها كانت من قمحٍ ونوّار في روح ذلك السراج، روحٌ فيها بيدر، وعلى موعد مع الصيف، والجني، والحصاد، الروح السوداء،

روح ضعيفة؛ فهي تهاجم أيَّ ضوْءٍ قادم من روحٍ وبهجةٍ وحياةٍ، فها هُم أطفال مدرسة في (كراتشي)، يختلَط دمهم معَ بياض الورق والطباشير في صبيحة أوّل يوم دراسيٍّ لهم هذا العام.

دنيا المفارقات، حيث تجاور مقالتي التي تتحدّث عن البيت والأُلفة مادّة صحفيّة أخرى تتحدّث عن الدّمار والدّم والخراب، يبدو أنّ الحياة لا تستوي دون لعبة التّوازن اليوميّ التي تلعبها بنا وعلينا مهما حاولنا أن نتجنّبَ تلك الأقدار!

كان يحبّ الحياة، وأنا كنتُ أحبّها، لكنْ فوق أكتافي ثقلٌ من الماضي، كان يعدو نحو الحياة بسرعة أكبر منّي، كنت أحاول اللّحاق به، لكنّ الثّقل كان كبيرًا على أكتافي.

خلقنا الله أحرارًا عن سواه، لكنّنا طوعًا نعود لعبوديّة أخرى لمن سِواه

متى جاء الفرح قالت الفرص خذني معك، وإذا جاء الفقر كان الكفر قرينه، بهذه التّوليفات من المتلازمات كانت حياتي تسير، فلم يحدثْ وأن جاءني الفرح وحيدًا، بل سار معه الحظّ رفيقًا، وبذات الإيمان يجيءُ الحزن لي مع كلّ عائلته من الحنين والشّجن ورهافة الحسّ.

كانت جدّتي شكريّة في طفولتنا حارسة بوّابة الذّكريات، بيتها في «أم صيحون» مسرحٌ بكر لذاكرة الطّفولة وبداية الشّباب، كانت سيدةً صلبةً مثل حبوب القهوة، لكنْ ذات صلابتها هي من يتحوّل لعبق الحنان حين يغلي قلبها يومًا علينا، أتذكّر حين رافقتُها لعرس بنت الجيران، وكيف مشينا على الأقدام نحو بيت العروس في طقس «الفاردة»، كنت أتمسّك بطرف ثوبها؛ خوفًا من تدافع النّاس حولنا، لكنْ في أقلَّ من دقيقة تركتُ يدها، ووجدْت نفسي أضيع في جموع الغرباء.

أمواج من الأثواب المطرزة، والأيادي المصبوغة بالحناء السوداء، وفتياتُ يحملن صواني الأرزّ بالحليب، وأطفالُ يفترشون الأرض، وسجّاد متكوّم في أطراف الغرفة الكبيرة، لكنْ لا وجه جدّتي، كان الزّمن قد توقّف بي، الدّقيقة تعادل سنةً لحظتها من رهبة

الوحشة. تفحّصتُ وجوه النّاس، تجاعيد النّساء والألوان الّلامعة التي تصقل وجوههنّ لكنّها تفشَل حينْ التّجاعيد، لا شيء في الكون كوجه جدّتي حينَها.

كانت أحنّ صفعة تلقّيتُها في حياتي، حينْ أفقْتُ منها، وهي تُسدّد لي من يد الحنونة جدّتي شكريّة، صفعتني وعانقتني تبكي: «خفت عليكي يا شينة من البير، خفت تكوني وقعتي بالبير»، لم أسقط حينها في بئر بيت أهل الفرح، لكن سقطتُ في بئر الخذلان مرارًا وتكرارًا، وكنت كلّ مرّة أعود مبلّلة بالإصرار، والكثير من الرّوايات كالّتي أسكبُها عليكم اليوم.

لا بدّ أنّ من يقرأ هذه السّطور يبحث عنّي الآنْ، ينبش الأوراق بنْهم، ويمسك طرْف كلمة، وطرْف برج، ويربطها بحياتي، سواء كنت الرّواية أو لم أكن، أنا فيها الغواية التي تقترب للإيمان.

درج الورد، حين تصعد عليه؛ توقّع لسعات الشّوك أكثر من أريج الورد

حين كنت طفلةً في مدارس مدينة معان جنوب الأردن، كان لي صديقة تعاني من تشوّه في شفتها العليا، هي لم تكن صديقتي، لكن ذلك الشرم هو من دفعني لأفعل، كانت محلّ نفور الطّالبات، لم تكن أحاديثها ممتعة، لكنّ انغماسي المبكّر في التّعاطف؛ هو من حكم عليّ البقاء لثلاث سنواتٍ في صحبتها، حتى قطعنا معًا الصّفوف الثّلاثة الأولى، وانتهت العلاقة في العطلة الصيفيّة، حين سافرت مع والدتها إلى ألمانيا، وعادت لنا بعدها بدون ذاك الشّرم، وانتهت تمامًا مَهمّتي معها، ولم أعد أحتاج أن أصادقها.

نعم، أنا هذه الطفلة التي وُلدت بثُقبٍ في قلبها ينزُّ حنينًا، دمعتها تنهمر من مشهد (جودي أبوت)، وهي تنتظر صاحب الظّل الطّويل، الذي لم يأتِ على مدار أكثر من ثلاثين حلقة، ذات الطّفلة الّتي في شتاء عام ألف وتسعمئة وستة وثمانين، ابتسمت في سرّها حين سمعت شقيقتها الكبرى تتحدّث بهلع عن أنّها داست رأس الهرّة الصغيرة خطأً بكعب حذائها العالي الذي انتعلتْه للمرّة الأولى. تُخيفني هذه الهرّة في كلّ مرّة أخرج فيها من باب البيت للمدرسة، كانت تبعثر هيأتي، وتطرد ما تبقّى بي من كسل النّوم، وتوقف حتى جذور شعر رأسي من الرّهبة، التي تصيبني حين تلتفّ بين قدميّ،

كنت أصرخ وأوقظ الجيران ومن تبقّى من نيام البيت، بعد أن نغادر البيت أنا وشقيقتي عائشة إلى مدرسةٍ في أطراف معان، كنا مختلفتين عن قريباتنا وقريناتنا؛ مسحة من بياض، وملامح ممزوجة من (فالون) والبترا، وعناية أكثر مما يتلقى الأقارب من حولنا؛ بفعل نبوغ والدي وحبه للمعرفة، وسعيه في أنْ يعوضنا عن قساوة فقد الأم المبكر.

كل هذه المشاعر أفعوانية التدفق، كانت تعبر خيال هذه الطفلة المولودة لأبٍ من بدو «البدول»، وأم سويدية عشقت الشرق، وتاهت فيه حبًا، ومضت سريعًا، فتشاء الحياة أن تسبغ عليها من التناقضات، ما يجعلها وحدها فصلًا شاردًا من رواية.

الرياضيّات التي شيّبت روحي، بقيت واحدة من نقاط ضعفي الكُثُر، الأرقام لغة اللّؤماء، هكذا كنت أبرّر لأبي تدنّي علاماتي فيها مقارنة بكلّ العلوم، لكن إلى أنْ حصلتْ معي حادثة إشارة الأكبر والأصغر، الّتي فتحت عينيَّ على أفق جديد من الحياة.

. مس خالدة، بصوتِها الحادّ الذي كان يشبه رسم زاوية خمس وأربعين، كانت تقول وتكرّر: «إشارة أكبر هي سمكة، والسّمكة بتفتح تمّها ع الرّقم الأكبر، ٦ - ٤»، حتّى وقفتُ بين الطّالبات، وقلت: «مس، مش صحيح، السمكة الحين فتحت ثمّها على الرّقم الصّغير»، وعدوتُ نحو لوح الطّباشير، ورسمت لها كيف فعلت السمكة، السّمكة الكبيرة فتحت فمها نحو الرقم الصغير بمجرّد

خطّ رسمتُه. ثوانٍ من الصمت، ودهشة زميلاتي حتى انتهى المشهد والمعلّمة تصفعني.

كانت تعتقد أنّي أسخر منها، أقسم أنّني لم أفعل، ورجعت إلى البيت ودمعتي في حلقي، لا أريد لأبي أو جدتي أن تعرف ما حدث، كانت ستلومني أيضًا أنّي «مفلسفة زيادة»، وكانت شقيقتي عائشة، ستجعل منها مادّةً خصبةً لبنات الجيران.

صفعة المعلّمة لم تكن قويّة، كانت أقرب إلى قرصة على وجنتي، لكنّها أيقظت ما بي من سخرية، كيف أنّ الدّنيا لا تتعامل إلا مع السّمك القويّ، وأنّ الأسماك الضّعيفة مصيرُها أن تكون طُعمًا سهلًا، تمامًا كما حدث معي بعد حادثة إشارة الأكبر التي انتشرت بالمدرسة، وأصبحَت مادّةً للتندُّر.

أنْ تكون من برج الحوت؛ أنْ تكون العائد كل مرة من الموت، بضحكة

(فلاش باك):

حين تفتّحت عيناي على سطوة الكلمات التي غذانا والدي بها بسخاء وعناية؛ إثر تجربته الأوروبية، التي كانت فرصةً ليدرك ما يمكن للأدب والفنون والكلمات أنْ تفعل في مصائر الشعوب، وما يفعله منقوعها السحريّ من شفاءٍ للنّفوس، وإثارةٍ حسيّةٍ للرّاكد من المشاعر، بدأت بالتّراجع قليلًا، ومدّ مياهٍ إقليميّة أكبر حول نفسي، كانْ هذا حين كنت في الحادية عشرة من عمري، حيث الفتيات من جيلي، يراقصن الدّمى، والفساتين البرّاقة، وكنت أنا على وشك أنْ أسقط في أول حبّ في حياتي.

فتاةٌ في الحادية عشرة من عمرها، تقع في غرام رجل من قرية «بشرّي» في بيروت، تعتزل مع كتبه ساعات طويلة، لا شيء يفصلهما عن اللقاء سوى ساعات المدرسة.

جبران، كان أوّل حبّ في حياتي، صحيح أنّه كان متوفًّى قبل أنْ أُولد بقرابة ثمانية وأربعين عامًا، وما حدث حينها من انجذاب روحيّ، يؤكّد أنّ الحبّ ما هو إلّا اشتعال فكرة، وتوقُّد روح حين يمرّ من فلكها جرم سماويّ آخر يمنحها ضوءًا سخيًّا، يُعيد الألق لصخورها من أحداث قديمة، وخيبات.

أحببت جبران خليل جبران منْ كلّ الأطراف، حين يكون الحبيب قيمةً من نور، وأدب وقداسة أنت تحيط بكلّ أشعّته، وتتوقّع منه أن يبادلك هذا الهُيام النّبيل بهُيام آخر.

يمنحنا الحبّ قدرةً جديدة علىً الإيمان؛ الإيمان بجدوى الحياة والعيش، ويجعل للتّفاصيل أجنحة تطير بها من مِساحات الاعتياد حتّى مدن الدّهشة، لم أخبر أحدًا بهذا الحبّ حتّى لا تكتمل مواصفات الجنون، واحتفظتُ به لنفسي حتّى أسرُدَه يومًا على الورق.

كلّ هذه المكوّنات الرّوحية؛ هي جزء من تفاعل حياتي حتّى كبرت، وانخرطت في سلك الصِّحافة المتخصّصة، بعد سنيني الجامعيّة التي قضيتها في اليرموك، حيث كنت اتنقل من إربد شمال الأردن إلى مكانْ سكني في عمان، فقد كانت عمّان ومقاهي اللويبدة هي بيت أهلي الذي اخترتُه كي أخفّف من حنيني إلى بيت العائلة في الجنوب، البيت البدوي العجائبي، الذي قد تجد فيه أربع لغات حيةٍ مختلفةٍ، وألوان بشرات متنوعة، تجتمع ليلًا على طعام «الزرب»، الذي كان يبرع فيه والدي، نجم الدلالة السياحية، كما كانت تطلق عليه الصحف حينها، لم يكن صعبًا أن تكون بين العمانيين واحدًا منهم، وبخاصّة في حالتي؛ فجذوري البدوية واللمحة الطفيفة من الألوان السويدية جعلتني واحدةً منهنّ.

يااه! من المقاهي في اللّويبدة التي تشبه الأغاني القديمة؛ حيث أنّها قادرةٌ أن تمنحك رحلةً عاطفيّةً وأنت في مكانك، ووقتك، على

الرّغم من مرور عشرات السّنين على إطلاقها. في (باتيسيري فيروز)، عاينتُ النّاس العَمّانيينْ القدماء؛ حيث كان هذا الرّكن العمّاني جزءًا من ذاكرة الذين يقاتلون من أجل أن يبقى حاضرًا حيًّا في صباحاتهم؛ رجال أعمال، ورجال دولة، وسيّدات في منتصف العمر، يَعْبُرْن هذا (الباتيسيري) الصّغير كلّ صباح. كنت أقول دومًا أنّ القلب لا يحتاج هذه (الميلفيه) المغطّاة بالسّكر، ولا تلك القهوة الفرنسيّة، القلب يحتاج أُلفةٍ ورفقةٍ، وهذا ما كان خلال سنوات دراستي في مقاهي عمّان، والجامعة؛ فقد عاقرتُ جلَّ مقاهيها، والغريب أنّ معظمَها يعتقد أنّي زَبونته الأوفى، ولي ركن محفوظ، كنت وفيّةً لحدٍّ ما، لكنّ القهوة كانت فاتنةً أكثر من وفائي، كنت أسمّيها حبّي المرّ العذب، وأكتب فيها ما لا يكتبه حبيب لحبيبته.

فتيل من «سراج» في روحي

متى التقيتُ سراجًا؟

هل قلت التقيت؟ لا أظنّ أنّ هذا قد حدث تمامًا، لأنّه هطل على روحي مثل غيمةٍ تسكب ماءً ثقيلًا في أُصبوحةٍ صيفيّة، لم أكن جاهزة لأمطار الصّيف، ولم أكن أصلًا أخطّط لأن أفسد تحليقي المهنيّ بأيّ ثقلٍ عاطفيّ، حينها كانت تقاريري تجوب العالم، واسمي يتصدّر المطبوعات العالميّة، وصورتي علامة مسجّلة للمرأة الحديديّة، التي استطاعت أن تنقش اسمها بين آلاف الأسماء، والرّجال تحديدًا.

ليس في مطار، ولا في مقهى، وحتمًا ليس في مطعم في بيروت، أو حتّى ببغداد، كما أنّه ليس في الوِكالة، ولا في مؤتمرٍ صحفيّ، وجدتُه في بريدي الإلكترونيّ!

في ظهيرة يومٍ عاصفٍ بالتّقارير والعمل، ومن بين زحمة الرّسائل التي تتوارَد على بريدي الإلكترونيّ، أجد رسالةً غريبة الوجود بين تلك الواردة وكلّها حول العمل:

«هُتان عقيل، هُتان عقيل، كتبتُ اسمكِ البارحة في تغريدة على حسابي في (تويتر)، وشاهدي ما كتب الناس من تعليقات »

سراج الدّين نور

حاولتُ أن أعبُر عن هذه الرّسالة، وأن أضمّها لعشرات الرّسائل التي كانت تصل بريدي الإلكترونيّ الذي يرافق موادّي

الإعلاميّة، حاولت أن أجعلها رسالة من ضمن الرّسائل التي تتدفّق كلّ أحد على بريدي، حيث موعد نشر مقالتي التي كانت بعيدةً تمامًا عن شؤون الحرب، حاولت جدًّا، لكنّي لم أستطع سوى أن أتتبّع رابط صفحته، وأشاهد التّعليقات التي توالت على التّغريدة، كانْ البعض منها هجومًا على تحيّزي الواضح للمرأة، ومنها ما يتوقّع أنّني فنّانة ناشئة، وغيرها من راح يسطّر كلمات الجاسوسيّة؛ بحكم أنّني أعمل لدى وِكالة عالميّة متخصّصة بالتّقارير الصّحفية في مناطق النّزاعات.

بقيت الرّسالة في بريدي دونْ ردّ لمدّة أسبوع، لكنّني في النّهاية ردَدْتُ بجملة وحيدة:

« استطلاع رأي، أم تصويت غير نزيه؟»

ونقرت (إرسال).

ثلاث دقائق حتّى وصلني الرّدّ:

« لم أتوقّع بعد أسبوع طويلٍ من الإرسال أن يأتي ردّكِ، إنّه لحدث عظيم، يمكنك أنْ تسمّي هذه التّغريدة فخًّا، لا بدّ أنّ فضولكِ دفعكِ لتعرفي مَن هي هُتانْ عقيل؟ مثلي تمامًا».

توالت الرّسائل بيننا، كان من أهمّها، أنّه قرأ كتابي الوحيد «نبوءة عاطفيّة» في مطار الدّوحة حين استحالت ثلاث ساعات ترانزيت مثل دقائق، وهو يُبحر في هذه النّبوءة العبقريّة كما سمّاها.

أربعة أسابيع من التّراسل عبر البريد الإلكترونيّ، أنهاها يومًا سؤالُه:

«هل لديكِ مشكلة في الأحبال الصوتيّة؟»

أجبته حينها برقْم هاتفي.

صوته لأوّل مرّة، كان يشبه طريقًا جبليًّا عميقًا، من أوّل اتّصال دندنَ لي أغنيةً كرديّةً لم أفهم منها شيئًا سوى أنّ صوته لا بأس به، وأنّه مجنون بما يكفي للدّهشة!

كان سراج معماريًّا، يملك سلسلة من شركات التّصميم، هناك برج في ماليزيا من تصميمه، وفي حيدر آباد بناء شاهق نال به جائزة تصميم عالميّة، وفي بيروت كانت سلسلة مطاعم أمريكيّة من تصميمه، كان مشهورًا بالتّصاميم التّجريديّة، لا يهوى التّناسق النّمطيّ؛ كان تجريديًّا متطرّفًا، هكذا أخبرتُه حين شاهدتُ أعماله عبْر صفحته في (أنستغرام)، وكذلك موقعه الإلكتروني.

كنت أقاوم هذه الموجة من الفضول والدّهشة في معرفة شخصٍ يبدو أنّه يعرفني، يعرف هُتان؛ سيّدة التّقارير الإنسانيّة التي تلخّص النّزاعات، ويعرف هُتان التي تكتب، وأنا لا أعرف منه سوى هذه الرّسائل، التي تتوالى على مدى ساعات النّهار، وبضعة اتّصالات تشبه كلمات الأغاني، أو حتّى تلك الرّوايات التي لن تُروى، وتُدفنُ مع أسرارها:

- سراج؛ أنت لا تصمّم أبنية، أنت تبعثر الكتل والفراغ!

- أنا مصمّم أن تبقَيْ في الكتابة، والأدب، ولا تشغلي بالك بتصاميمي، فقط انشغلي بي.

- واثق من نفسك كثيرًا؟! الثقة حلوة على كل حال.

- لهجتك فاتنة يا هُتان، مثل ملامحك أو ربّما أجمل.

- سراج أفضّل أن نتحدّث غدًا؛ لديّ عمل.

- جبانة، غدًا حين تُفيقين، أكون أحلّق فوق المحيط الهادِئ، لديّ سفر بعد بضع ساعات.

- حلّق في كلّ الأرجاء، في كلّ الفضاءات لي مكانة.

- ياه من غرورك الشهيّ! تقصدين أنّك مشهورة، وأنّ اسمك تتداوله الفضائيّات.

- أبدًا لا أقصد هذا، بل أقصد أنّ روحي غيمة.

- يسعدني أنّي ماهر في استفزازكِ.

كانت هذه الذّبذبات اليوميّة التي تسري عبر الأثير، وتصل هاتفي في بيروت من هاتفه الذي يتجوّل بين لندن، وبروكسل، والهند، تشكّل هالةً ساحرةً غامضةً تحيط حياته، وتجذبني كلّ مرّة نحو الحديث مع رجل لم يجمعني به يومًا فنجان قهوة، ولا لمسة يد، ولا غيمة عطر يتركها أثره... لا شيء سوى «شويّة» كلمات وجمل، وقليل من صور، و«كمشات» من الأسئلة الشّهيّة.

انتصف تمّوز في بيروت، وكنت أتحضّر لرحلةٍ للهند، لا شيء سيكون أكثر مغامرةً من رحلة للهند، لم أخبر رفيقتي (لارين) إلّا قبيل السّفر بثلاثة أيّام؛ لم أكن أرغب أن أربك خِطّتي المجنونة، وربّما لسببٍ آخر، يعرفه جيّدًا عقلي الباطن، قلَّ تواصلي مع عائلتي في الجنوب، بضع رسائل أسبوعية مع شقيقتي عائشة في (أستراليا)، التي تنعم بحياةٍ جميلةٍ هناك مع ثلاثة أطفال وبيتٍ جميل، ووالدي الذي يتنقل بين الأردن وبضعة أصدقاء في (السويد)، وجدتي الباقية من عائلتي والتي تقيم معي، ويتلاشى حضورها مع الوقت والأدوية التي تجعل معظم وقتها في جبة النوم.

كان سراج أوّل من يعرف نيّتي السفر للهند؛ أخبرته في رسالة على هاتفه:

«الهند تناديني»

أجابني:

«لا يكفي أن أجيبك برسالة، سأتّصل بكِ حال أن أُجْهِزَ على آخر رجل منهم»

كان سراج رجلًا حادّ الطّباع، ولو خيّل لي أن أصنّفه من البهارات، فلا شكّ أنّه سيكون زنجبيلًا حارًّا ولاذعًا، لكنّه فعّال في القضاء على عديد من العِلل. لم يحدث خلال الاتّصالات اليوميّة-

التي تبدأ منذ السّادسة صباحًا بتوقيتي - أنْ سمعت له جملة ترتدي زُخرُفًا، كان مباشرًا واضحًا ويمقت في حديثه «المدّاحين»، وأخبرني يومًا أنّ في جهنّم هناك مقاعد من الدّرجة الأولى للمجاملين، وأنّ لهم ركنًا رئيسيًّا في قعر جهنّم، التي كان يشبّهها بمقلاة بحجم كبير جدًّا، تلتصق فيها المعاصي، وسألني ذات يوم عن تصوّري للَجنّة، أخبرتُه: أنّها شاطئ من رمال بيضاء يحفّه شجر النّخيل والأعشاب العطريّة، والماء شفّاف تمامًا، وهناك غيوم قريبة من الماء؛ كلّ غيمة تنشر عطرها. أجابني: ماذا تفرق الجنّة إذًا عن حياةِ ثريّ روسيّ ؟ حينها خجلتُ تمامًا من إجابتي.

- شو فيها الهند يا هُتان؟

أجبته بهدوء: فيها شاي، وكاري، وتاج محلّ، وفيها برج من تصميم العالمي سراج الدّين.

أربكَتْه إجابتي، فقد تكون هذه أوّل رسالة اهتمام مباشرة منّي، ردّ بثقة مفتعلة: «إذًا سأسمحُ لكِ بزيارة البرج، وربّما أساعد بالوصول للطّابق الخمسين»، قُلت: «أعشق المرتفعات»، أجابني: «طبيعيّ أن تفعلي؛ لأنّك مخلوقة للجبال الشّاهقة والأبراج المشيّدة»، قاطعته: «من أين لكَ هذا البيان؟»، أجابني: «إنّه والدي الذي هاجر من العراق مبكّرًا لبريطانيا، وحمل بلاده على شكل كتب وقصائد، ذكّريني حين نلتقي أن أهديَكِ نسخةً من ديوانه الشعريِّ الوحيد».
لم ألتفت لتفاصيل الكلام بقدر كلمة «حين نلتقي».

تعمّدت إنهاء الاتّصال؛ كي أستعيد روحي، التي شعرت أنّها تقودني بسرعة مئة وعشرين كيلومترًا في الساعة، في طريقٍ جبليٍ تحفّه منحدرات من الغموض.

من هاتف سراج إلى هاتف (لارين) ودون أيّ مقدّمات:

- (لارين) ، ع فكرة سأسافر إلى الهند بعد يومين.

أجابتني بنبرة مندهشة: مهبولة إنتي؟ مليان أمراض هونيك.

- الأمراض أن نعيش في كبسولةٍ معقّمةٍ بعيدًا عن الحياة المجنونة.

- يا ستّي الله يجنّنك كمان وكمان، بس دخيلك شو قصتِك من شهر مانك معي؟ في شي غريب عم يصير معَك!

- ما غريب إلّا النّسيان، نسيتي إنّي كلّ سنة بهيك وقت أتصومع وحدي؟

- كِزّابة!(ردّت بثقة).

- (لارين)؛ مش فاضية لخرابيطك، سلام.

أنهيتُ حوارنا الرّماديّ وسألت نفسي حينها:

هل بدأت أعراض الاهتمام تظهر لمن حولي؟ ربّما من كمّيّة الانعزال التي غلّفت حياتي بشكل مفاجئ، وكميّة الغرابة التي لا تجد تفسيرًا لها عند من يُحيطني من أصدقاء وأوّلهم (لارين).

كنت أتجهّز للرّحلة، التي يبدو أنّ سراجًا على وشك أن يكون ربّاني بها، لا أقصد رحلة الهند، لكنّها المسافات، التي بدأت روحي

تتحضّر لقطعها واجتيازها من تجارب حياتيّةٍ جديدةٍ، سأقطعها هذه المرّة بصحبة إنسانٍ جديدٍ وبعيدٍ، قد يكون نصفيَ الآخر.

سراج: رجل الزّوايا

عشيّة سفري للهند، كان بيننا اتّصال مطوّل، كان الحديث عن طاقة الزّوايا، وتركيز الطّاقة التي يؤمن بها هذا السراج، كان يصف العلاقة بين الزّوايا والمشاعر، أخبرني يومًا كيف يصغي للزّوايا، وكيف يطوِّعها في أيّ بناء من أجل أن يجسّد المفهوم الذي يقوم عليه البناء.

وأسرَّ لي قصّة أغرب منزل صمّمه كهديّةٍ من رجل أفاق من غيبوبة الخيانة، على حبيبةٍ كانت على وشك الرّحيل عنه، بعد أن اكتشفت أنّه يعبث بحياته قبل حياتها، فأراد هذا العاشق الضّالّ أن يكفّر عن كارثته، وأن يهديَها منزلًا في مراكش لا يوجد به أيُّ زاوية؛ لأنّ الحبيبة بعد أن اكتشفت خيانته، كانت قد جلست مطوّلًا في زاوية غرفتها، وقد أصابتها صدمةٌ عصبيّةٌ، فاعتزلت العالم والنّاس شهورًا طويلةً، قبل أن تقرّر أن تخون ذكرياتها معه، وتخلعه لغير رجعة. طَرق الحبّ قلبها من جديد، وطرق الحديد رأس هذا العاشق الخائن، فخرجت فكرة المنزل المستدير؛ كي يُحوِّط حياتهما الجديدة لغير رجعة... لغير زاوية.

وهو يتحدّث، شردتُ قليلًا، نسيت الزّوايا، وتخيّلت كم هي الخيانة مرعبة، حتى في الخيال. شَعر بشرودي، وقال: «زهِقتي من كلامي؟»، أجبت: «لا طبعًا، لكن سرحت مع الخيانة»، ردّ بطريقةٍ

حادّةٍ: « جرّبتها؟»، قلت: «طبعًا لا!»، فسأل: «ولماذا طبعًا؟»، لا أدري كم كنتُ نرجسيّة في الرّدّ حينها، لكنّي تداركت هذا، وأكمَلت: «أتصوّر أنّها الألم الأوّل قبل الموت، الموت لا يوجع الميّت، لكنّ الخيانة هي مِيتةُ بنسخةٍ أرضيّة قد يطول بها الأمد، وبكامل طاقة الأحاسيس». صمت لبرهة، وقال: «أنت عظيمة يا بنت!»

انتهى اتّصالنا، بعد أن عرف موعد رحلتي، واسم الفندق الذي سأحِلّ به، اقترح عليّ مشغّل خدمة اتصالات جيّد بنيودلهي، وقال: «هُتان جرّبي كلّ شيءٍ في الهند، الهند تدهشك دومًا ».

أسعدتني جملته؛ لأنّها جاءت عقِب الكثير من التوجّس الذي أثارته فيّ كلمات صديقتي (لارين).

السقوط من علٍ

هبطت طائرتي الهند وقت المساء، وهذا مَدعاةٌ لهبوط المِزاج؛ لأنّي كائن صباحيّ تتغذّى روحه بالنّور، والألوان، وتنكمش بالظّلام، وتتوه في حيرة السّحب الرّماديّة الّتي غطّت مطار (أنديرا غاندي).

كانت الغيوم الرّماديّة تغطّي سماء المدينة التي ترى بها المتّناقضات؛ مدينة تتقافز بين الحداثة، وبين الحضارة البوذيّة القديمة. تذكّرت كلام (لارين) يومًا عن دول شرق آسيا، بأنّها من أجمل ما خلق الله من طبيعة، وأتعس روائح ممزوجة من الرّطوبة العالية، والبهارات الشرقيّة.

قطعتُ المسافة بين المطار، والفندق الذي اخترته من وكيل سفري في بيروت، ويجاور مبنى البرلمان هناك. الغريب أنّ المدن التي تتمركز فيها مؤسّسات السّلطة عادة ما تكون الأكثر دلالًا في التّنظيم، والطّرقات، وهذا ما شاهدته في نيودلهي حتّى الآن، كنت أقول ببالي أنّ البعد جفاء حتّى في تنظيم المدن، وتخطيط الشّوارع، في الحبّ والسُّلطة لا فرق.

قليلُ من الدّهشة بدأ يتسرّب إلى قلبي؛ فهناك الكثير من المعالم والمتاجر للاستكشاف، لكن لا أعرف لماذا سألت نفسي بقليل من الخيبة: «وِش جابكِ ع الهند بروحِك؟».

من شرفة غرفتي التي تطلّ على معالم نيودلهي، قضيت المساء، شعرت أنّ قلبي مثل عنق زجاجة، ممتلئ بالمشاعر، مختنق بالبوح، «ناظرت» هاتفي المحمول الذي ما زال في وضع الطّيران، حلّق قلبي حين فعّلت الشّبكة، وكان أوّل إشعار من سراجي:

«كيف الأميرة النبطية في المدينة؟»

وبعدها رسالة بالمكالمات الفائتة، والتي كانت من سراج، و(لارين).

عاودت الاتصال به، واعتذرت عن تأخّري بالرّدّ، بحجّة المدينة المربكة، وتغيّر الجوّ، ردّ عليّ ببرود، وأخبرني بأنّه مشغول حاليًّا، ولديه اجتماع سيستمرّ ساعات، شعرتُ بخيبة بحجم قارّة الهند!

أجبرت نفسي على النّوم، فالّليلة الأولى في مدينةٍ كلّها أنوار، وسحر، وغموض، أمرُ غاية بالصّعوبة، أقراص (الميلاتونين) تسافر قبلي في الحقيبة. أفقتُ على صوت دندنة أغنية هنديّة من غرفة مجاورة، ورائحة بهارات من كاري وزعفران، لا أدري كيف أخذتني هذه الأجواء لليلة صيف قضيتها في كهف في البترا مع والدي وشقيقتي عائشة، كان الكل نيام لكن صوت بكاء طفل في كهف مجاور، ذكرني بطفولتي التي اقتلع الموت منها شعور وجود الأم، لا أذكر يومًا أن ناديت كلمة ماما تمامًا، وكل ما أذكره منها صورُ قليلة، وحكايات يرويها أبي عنها وعن حياته القصيرة في (فالون) في (السويد).

أعدَدْت قهوتي بسرعة، وتفقّدتُ هاتفي الذي يبدو أنّه لم يستقبل أيَّ مكالمةٍ من ذلك السراج، لا بأس ... لا بأس.

مرّت ساعات الصّباح، وأنا في بهو الفندق، مرتبكةً من أين أبدأ رحلتي في المدينة، لكنّني فعلتها وبدأت.

كنت قد قرّرت أن أزور الهند التي تسكن النّاس، هند الكهنة والمتأمّلين، هند النّساجين والطّهاة؛ لهذا، دوّنت قبل سفري أسماء أشخاص بَرعُوا في هذه المنح، نعم كنت أسمّيها منحًا لا احترافًا؛ أن تجيد التأمّل، وتفرغ عليه صبرًا، أن تنسج من الحرير وشاحًا، وبين كلّ خيط وخيط، تدسّ إبرة إيمانك، بأنّ هذا العمل الدّقيق الطّويل يستحقّ العناء، في زمن صارت فيها الحلول الرّقميّة بديلًا للحلول الآدميّة، أنْ تفرِّط في ساعات من يومكَ في صناعة صلصة المانجو، والكاري، وتنتظرها في جِرارها أيّامًا وأسابيع حتّى تعطي طعمها.

كانت (أندورا) أوّل قِبلةٍ آدميّة يمّمت صوبها، فنّانة ترسم أعمالها من بطاقات السّفر المستعملة، كلّ تذكرة سفر بالقطار، أو بالطّائرة؛ هي مادّة خام تحوّلها بفعل الصّبر إلى شاهد ضمن أعمالها التي ترصد الوداع، وخزتْ قلبي حين شاهدتُها منهمكةً في عملها، لم تلتفت صوبي، وربّما اعتادت ولوج السّيّاح من جميع أنحاء العالم لمرسمها. كانت ذبذبات الموسيقى التي اعتدتُ سماعها من مرشدي، الذي كان يعلمني التأمّل، على موسيقى أربعمئة وثلاث وعشرين (هيرتس)، ذبذبات تسنّ الرّوح، وتعيد تنظيفها من قلّة الغفران،

الذي نمارسه ضدّ أنفسنا، ومن الخذلان الذي يتسبّب به الآخر جرّاء رفع سقوف التوقّعات، والتي سرعان ما تنهار بموجب قوّة «جاذبيّة الخراب».

(أندورا)، كانت ترتدي قميصًا أبيضَ طويلًا، يشفّ عن ساقين نحيلتين، وبأكمام مزركشة بخيوط حريريّة، وبضع لطخات من الألوان. شعرها ناله خصلة مفاجئة من البياض، كانت منهمكة بلصق بطاقات السّفر، وإضافة ألوان على أطرافها، وكأنّ الزّمن سمّرها في إحدى محطّات قطار نيودلهي، كان يُفترض أن أتوه في الجداريّات الضّخمة التي تزيّن مرسمها، لكنّي تهت في شغفها وتوحّدها بذاتها، هل تركتها دون أن أقاطعها؟

طبعًا لا. باغتُّها بتحيّةٍ بالإنجليزيّة، التفتت نحوي بابتسامة خجولة وحيّتني، وقالت: «حان وقت الشّاي بالزّعفران الآن». أشارت إليّ بيدها، وتوجّهتُ معها نحو ركنٍ صغيرٍ تفوح منه رائحة الزّنجبيل، والقرفة، والكاري، تناولت فنجانَين بيدها، وسكبت قليلًا من الشّاي بحركة بطيئة، وسألتني حينها: «مِن أيّ مطار جئتِ؟»، أخبرتها أنّي قادمة من بيروت لنيودلهي؛ أيْ عبْر مطارين، من الحريري لدبيّ الدّولي حتّى هبطتُ هنا في نيودلهي، لم يفاجئني سؤالها، لأنّ شخصًا مثلها يحترف توثيق تفاصيل السّفر، لا بدّ أنْ يرى العالم سكك حديد، ومحطّات قطار، وبضعة مطارات، وكيلومترات من المسافات الّتي تفصل بين فراقٍ وآخر.

دار بيننا حوار ونحن نحتضن الفناجين بين أصابعنا، وفي منتصف الحوار سألتها عن برجها، أخبرتني أنّها من برج الحوت، وهنا ابتسمت ابتسامة العارفين، وأخبرتها أنّني من ذات البرج، الشاهق بالأحاسيس، (أندورا) قضت عشرة أعوام من حياتها في واشنطن، وهناك درست الفنّ المعاصر. انتهى وقت الشّاي، ووددتُ لو كان أطول. لكنّ هاتفي كان يتدفق بالإشعارات، التي خجلتُ أن أنشغل بها في حضرة امرأة روحها شفّافة مثل قدحٍ من الشّاي. تناولت هاتفي، وغابت هي في زقاق يعيدها نحو المرسَم.

« كيفك يا مهراجا روحي»

« وينك»

« هالقد مشغولة ؟»

« دقيت لك!»

« هتااان»

فكرت أن أتجاهل الرّدّ، فما زلت منذ آخر ردّ له منزعجة، وأشعر أنّ شيئًا ما قد انهار فوق رأسي، ربّما هي تلك السّقوف التي نبنيها من رخام الوهم، وتنهار فوق رؤوسنا دفعةً واحدةً، لكنّ الهند كبيرة عليّ وحدي، سأجيب وأمري لله.

«أهلًا»

« أنا هون»

« كنت مشغولة»

«جوّالي كان بعيد».

بهذه الكلمات المتجمّدة أنهيت محادثتي، وشعرت أنّه استسلم لمزاج ردودي وغاب، كان يزعجني أنّه سرعان ما يستسلم وينسلّ من بين الحديث، حين يشعر أنّي أقاوم فكرة انجذابي له، هل من المنطق أن ننجذب لشخصٍ ما لمجرّد بضع أفكار، و«كمشة» كلمات، وباقة صور، وأطنان من الغموض؟

عدتُ من مرسم (أندروا) للفندق. في الاستقبال، أخبرني الموظّف أنّ هناك شخصًا ينتظرني في الرّدهة. هنا، وفي نيودلهي؟!

مشيتُ، تسبقني كومة من الأسئلة، انتهت تمامًا، حين وجدت سراجًا يشعّ من على بعد أمتار، حيث انكسار شمس الرّدهة على شعره الأبيض، ولحيته التي يشوبها بياض الفضّة، هذا السراج الذي رافقتني صوره عبر البريد الإلكترونيّ، وفي المحادثات المتقطّعة، وفي أخباره التي أنبشها كلّ يوم عبر المتصفّح، سراج هنا أمامي بكامل أبعاده الرّوحيّة التي لمستها عبر المسافات.

أعدتُ له يدي، لا أعرف كيف ارتمت بين يديه هكذا، كأنّها طفلة تريد أن ترتاح في حضن، لم أتحدّث بكلمةٍ سوى بابتسامةٍ تداري دهشتي وخجلي الشّديد.

ولأنّ مثلي لا يُباح لها لهفة، تماسكت مجدّدًا وقلت له :«يا مجنون»، ابتَسم، وقال: «مجنون لأنّكِ تأخّرتِ عليّ».

«قهوة؟»، قلت: «نعم». طلب قهوة (نيرفانا)، كنت أسمعه دومًا وهو يحادثني في طريقه لمكتبه؛ حيث يطلب (نيرفانا) خلال قيادته للسيّارة، كانت أوّل مرّة أجرّب فيها هذا النّوع من القهوة، شربنا أرواحنا المتوثّبة للآخر من خلال فنجانَين يعبقان برائحة البُنّ القويّة.

قال وهو يميل رأسه نحو ظهر المقعد: «(النّيرفانا) لها روح أيضًا، قهوة حسّاسة جدًّا، من سنوات لم أفكّر أن أخون عهدي بها، وأختارها كلّ مرّة حتّى لو كانت من بين عشرات الأصناف؛ من أوّل فنجان منها، تشعرين أنّ يقظةً لذيذة تسري في جسدك، تُهيمن على تعبك، فتحيلُه لقوّةٍ يمكن بها أن ترسمي تصميمك المعماريّ، أو حتّى قطعة شعر، أو توقعين بها أذكى رجل من خلال بيتي شعرٍ من قصيدة، أو سمِّها حتّى «مصيدة»، (النيرفانا) حالة أكثر من درجة تحميص قهوة، حين يتطاير من حبوب البنّ -في آخر درجات التّحميص- زيتُها يكون هناك حالة عالية الإحساس؛ حبوب كانت على وشك الاحتراق، لكنّ ثانيةً واحدةً تجعل منها شيئًا في أسمى حالات النّكهة واللّذّة. (النّيرفانا) علم يحتاج دراسة... عِلم والله».

أنهى حديثه العميق بحماسٍ متّزن، وتابع رشف القهوة، وهو يمسك الفنجان بطريقة فنيّة؛ أصابعه تحيط بمحيط الفنجان، وكأنّه يحتضن إنسانًا، تابع حديثه وقال: «على فكرة لكِ يدان صغيرتان!». ارتبكتُ مجدّدًا، وأكملت (نيرفانتي)، وأنا صامتة في حضرة سلطنة

هذا الرّجل، الذي يمدّ كلّ أسلحته في سهولي الوادعة بالزّهر.

من أين أبدأ ربط الغيمة الإلكترونية؟ من الأحداث، والتّفاصيل، والصّوت، والصّور، وتركيبها باللّحم، والدّم، والإحساس، وبثّ الرّوح فيها، كان سراج يختلف عن سراج الإلكترونيّ بتفاصيل قليلة مثل الضّحكة التي تندلع بطفولة، الخصلات البيضاء التي تتحرّك مع جبينه، أمّا اللّحية، فكانت كما هي بالصّور؛ متناسقة لحدٍّ بعيد، وتخفي خلفها ملامح شابّة، ارتباكة اللّقاء التي كان لي نصيبها الأوفر تبدّدتْ أمام عظمة دهاء وتمكُّن هذا السراج، كان رجلًا يعرف من أين يزهر القلب.

كانت الليلة الأولى التي قضيناها في مقهى قريب من الفندق عابقةً بالأغاني واسترجاع الذّكريات،

- سراج ، أنا غاضبة جدًّا.
- لماذا ؟
- غاضبة من الخمسة والثلاثين عامًا التي مرّت قبلك.
- لديك الآن فرصة مثاليّة لتفريغ هذا الغضب.

كنت ماهرةً في تجاهل الكلمات، مصائد الكلمات؛ امرأة تكتب وترسم وتتأمّل وتصيد بهدوء، لكن ترفض تمامًا أن يتمّ صيدها بسهولة حتّى لو بطوق كلمة بريئة.

مرّت الأيّام في نيودلهي مثل حلم هنديّ، دهشة تعيد بعث حواسي السّت من جديد، وتضخ بي طاقةً من نار وحديد، أنتظر

منه رسالةً في الصّباح لنلتقي في بهو الفندق، ونبدأ نهارًا لا يشبه أيّ وقتٍ مرّ بحياتي، رغم أنّي عشت تجارب الأسفار والتقيت الكثير ممّن يضيفون للحياة هالة من السّحر، لكنّ الكيمياء التي أنا تحت تأثيرها الآن، لا تشبه أيّ شيءٍ مضى، كنت أصلّي لله أن تبقى كيمياء، ولا تتحوّل لجيولوجيا؛حيث صدوع العاطفة، والانهيارات، والجليد.

« رحلتي غدًا السّاعة التاسعة ليلًا»، لملمتُ روحي من هذه المدينة، وقبل أن أوضّب حقيبتي وضّبتُ زيارةً لمرسم (أندروا)، كنت أريد أن يرى سراج سادنة التّذاكر والفراق، بصراحة كنت أريده أن يشعر بوجع الغيابِ مبكّرًا.

- (أندورا)، طبعًا أعرفها، شاهدت عنها فيلمًا قبل ثلاثة أعوام.

- كنت أعتقد أنّني السّائحة العربيّة الوحيدة التي اهتدتْ إليها!

- ربّما فعلًا أنّك العربيّة بل البدوية الأوروبية الوحيدة التي استنطقت فنّها العظيم.

فْي السيّارة، حيث الطريقُ للمرسم، كانْ سراج يجلس بقربي ويده مرتاحة على جانبيه، بينما كانت يدي تتوسّد نفسي وتلفّها، كأنّني كنت أخشى السّاعات القادمة من فراق... تبدّد البرد حين امتدّت يد سراج نحو يدي بكلّ حنان الدّنيا، وقالت كلمات شعرتْ بها يدي، فقط يدي من كانت قادرةً على فكّ شيفرة هذه الذّبذبات التي نقلتْها يدُ سراج نحو قلبِ يدي.

دخلنا المرسم، وعرَفتني(أندورا) فورًا، وحيّتني والفرشاة بيدها، وأكوام التّذاكر تجاور جلستها الصّوفيّة، تقدّم سراج وسألها: «كم فراقًا مرّ من بيْن يديك؟»، ابتسمت (أندورا)، وأجابت: «كثير وموجع»، شعرتُ بسطوة هذا السراج الذي كان جاهزًا دائمًا لبدْءِ

أيّ محادثة، مع سائق التّاكسي، مع نادل المطعم، مع عامل نظافة الشّارع، مع عارضة أزياء كانت تنفّذ فيلمًا دعائيًّا داخل بهو الفندق، مع كلّ شخص عبَر بأوقاتنا... لم يتوانَ سراج أن يرمي له كلمة أو جملةً حكيمةً، تجعل منه نجمًا يشعّ كاريزما، وبلاغةً خفيفة الظّلّ.

(أندورا) هذه المرّة كانت أكثر جراءةً، وأقلّ تحفّظا من اللّقاء الأوّل الذي جمعني بها، ربّما هو تأثير سراج، الذي يعرف من أين يؤكل القلب أيضًا، أخبرتنا عن حكاية التّذاكر، وأنّ هوسها بدأ منذ أن فارقت أوّل حبيب لها في محطّة قطارات شمال بلدتها، كان ذاهبًا لمحطّته التّالية لمطار (نيودلهي) لكنّه لم يعُدْ، ولم يستخدم تذكرة الطائرة؛ لأنّه سقط ببساطة من فوق القطار وانشطر إلى نصفين، لا مجال للتّفكير بالسّلامة في الهند، هكذا ختمت (أندورا) سردها لقصّة أوّل قبرٍ في قلبها، وباعثِ إلهامها حين كانت في السادسة عشرة من عمرها.

«لا مجال للسّلامة في الهند»، قالت (أندورا) هذه الجملة بطريقة مؤثّرة، ويبدو أنّها نقشتها في دماغي، ليس بدماغي فقط، فقد ردّدها سراج أكثر من مرّة وقالها بطريقة غنائيّة.

- «There is no way to be safe in India»

وأكملها بلغة عربيّة ناظرًا في عينيّ: «وفي قلبكِ أيضًا لا مجال للسّلامة».

نظرتُ لعينيه حينها، وأنا التي خلال الأيّام الأربعة التي مضت بصحبته كنت أتجاهل أن أنظر لعينيه؛ كي لا أرى سجني الجديد، ولا القيد الحديد الذي يبدو أنّي قيّدت معصمي به طوعًا، وأنا التي كتَبَت يومًا في مقابلة عمل غريبة الأطوار في مبنىً بمجلّةٍ في بيروت، أنّ سيرتها الذاتيّة الحقيقيّة تُختصر بأغنية:

«أنا طير بالسّما،
بعشق بالومى،
وبسيط إنّما عايش ملحمة،
ويعيش له سمة،
وينول أوسمة،
ويبعتر شوق من غير لملمة»

حصلتُ على الوظيفة بعدها مباشرة، ومنها انتقلت للعمل في وِكالة الأخبار التي كانت تبيع أخبار النّزاعات، والحروب في العالم.

خرج سراج من صومعة (أندورا) دون أن يقول لها وداعًا أو يشكرها على حفاوة بوحها، هكذا ببساطة انسلّ من المرسم، ولم يراعِ أنّي موجودة، وكأنّه راح يلبّي نداءً طارئًا. مضى سريعًا، وبعد خطَوات، التفت للخلف، كي يتأكّد من وجودي، ابتسمتُ، وقلتُ له: «لستُ هنا، أكمِل دربك».

مرّ اللّيل في مقهى يقابل الفندق، كان يلفّ سجائر التّبغ بعناية بالغة، ويعامل الرّقاقات مثل ورق الذّهب، لا شيء كان

يعكّر الموسيقى الهنديّة، وروائح الورد، والعود الكمبوديّ الذي كانْ ينتشر فْي الأرجاء سوى ضوء هاتفه، الذي كان صامتًا معظم الأوقات التي قضيناها معًا، هاتفُ يبدو كجُرمٍ يضيء هذا اللّيل الذي يغلّف المكان، أو ربّما إشارات جريمة.

- غدًا تطيرين لبيروت، مرّ الوقت سريعًا يا هُتان.

- نعم للأسى والأسف.

- لم تحدّثيني عن (لارين)، ولا عن جدّتك شكريّة، متى ستأخذيني للبترا لأرى الزملاء الأنباط وبديعتهم الخزنة والدير؟

- أفضّل أن لا أفعل.

- ليه هُتان؟

- أحبّ أن تلتقيَها يومًا.

كانت هذه الجملة دعوة مبطّنة لزيارتي في بيروت، التي شيّد فيها سراج برجيْن سكنيّين وفندقًا في «علايا»، انتصف اللّيل والفراق قاب نقرتيْن، الموسيقى الهنديّة كان لها تأثير النّبيذ في روحي. لا شيء سوى التوحّد مع هذا اللّيل الغريب في مدينةٍ غريبةٍ، وعلى يميني كتف رجل كان غريبًا عنّي قبل بضعة أشهر، الموسيقى ممزوجةُ بذرّات الظّلام، الغرباء في ليل المدينة الغريبة، والمصير الغريب الذي يجعل من شخصيْن التقيا للتّوّ يلتحمان في قلبٍ واحد، كان له في ذمّة قلبي حينها أن أرميَ رأسي على كتفه، لكنّي فضّلت أن أُحيط يديّ حولي، وأن أحضن نفسي في هذا اللّيل السّاحر، اقتربتْ منّا سيّدة

ترتدي مِهرجانًا من الألوان، وبنظّارة سميكة، وأشارت لقفص في داخله ببغاء أخضر اللّون، ابتسم سراج، وأخبرني أنّها قارئة فلك، وأنّه قرأ حظّه قبل أربعة أعوام هنا في المدينة، وتحقّق معظم ما تنبأت به. جلست السيّدة ومصباح المقهى يضيء طاولتنا التي فردت عليها المُنجّمة بطاقات (التّاروت)، أخبرتها اسمي وتاريخ ميلادي، بدأت تحريكَ البطاقات، وكتابة كلمات، وسراج يراقب بهدوء، وبغيمة من سجائره.

أخبرتني أنّها تراني أخطِبُ في زحامٍ من النّاس، وأنّ لديّ الكثير من الوعود الكبيرة في الأيّام القادمَة، لكنّها ترى أنّ هناك نزيفًا في طريقي، النّزيف قد يكون جرحًا أو ألمًا يتسبّب في مكوثي بمكاني لفترة من الوقت، وأنّي على وشك أن أفقد شخصًا من عائلتي، وأنّ عليّ أن أكون حذرة من زيارة أرواحٍ شريرةٍ لي في الرّبع الأخير من هذا العام، وأن أحتاط بكثير من أشعّة الشّمس، توقّفتْ قليلًا، ولمعتْ في عينها دمعة، وقالت: «لم أرَ أطيبَ من روحكِ منذ أكثر من مئات القراءات»، وأنّي مباركة، وأنّها لم تشعر أنّ لديها رغبة في أن تصافح يدًا ممّن تقرأ لهم، ولكنها الآنْ على وشك أن تفعل، صافحتني، وشعرتُ بطاقةٍ غريبةٍ تسري في يدي، وقبل أن يمدّ سراج يده، ويدفع لها أجرتها، قال لها مستنكرًا: «لكنّك لم تخبريها متى ستلتقي حبّ حياتها»، ابتسمتْ، وصنعتْ علامةً لم أفهمها، لكنّها تدلّ أنّها لا تريد أن تقول.

غادرتنا العرّافة إلى طاولةٍ مجاورةٍ، ولم تغادرني دهشة ما قالته، يبدو أنّي سأفقد جدّتي شكريّة قريبًا، تنفّستُ بعمق، وحينها أدرك سراج ما عبر بي من قلق، وأخبرني أنّه نسي أن يقول لي أنّ العرّافة ربّما تقول نفس هذا الكلام مع تعديلات طفيفة للسيّدة على الطّاولة المجاورة!

- ربّما يا سراج، ربّما لكنّي اللّيلة هشّة أكثر من أيّ وقتٍ مضى.

اللّيل يجاور الفجر، والمقهى بدأ بالاستعداد للصّبح، ولا شيء سوى الغريبين في اللّيل السّاحر.

حملنا أنفسنا المرهقة من السّهر الطّويل، والحكايا التي لا تتوقّف، ومراجعات العمر، والأغاني، وتحليق القلوب داخل أقفاصها الصّدريّة، ومشينا نحو الفندق.

مشت معنا الاحتمالات، والسيناريوهات، كنت أتخيل احتماليّة أن يكون هذا آخر مساءٍ لنا معًا، واحتمال آخر يزهر في روحي؛ إنّ هذه مجرّد غلافٍ لروايةٍ كبيرة، وسيناريوهات كيف سيكون الغد علينا، لا أحد يعرف كيف تتقلّب القلوب وحتى تتقاطع الدّروب، كن كريمًا يا الله، وامسح على قلبي الذي زهد طويلًا...

حين تسلّم روحك لمن تحبّ، لن تساومه على منح خصلات شعرك، شفاهك، كتفك، لأنّ من يمنح برجًا شاهقًا لن يقف عند منحك سطح المبنى، ليلتها سقطتْ من السّرير قطعة معدنيّة التقطها سراج وقال: «هذا مكبس رموشك»، أدهشني أنّه يعرف هذه الأداة

التي تعرفها فقط النّساء، بل إنّ كثيرًا من النّساء لا يعرفنها!

عدتُ إلى بيروت، وخزانة روحي مليئة بهدايا القدر، رفٌّ للضّحكات، رفوف للكلمات التي لم نَقُلْها، ومِشجبٌ لأوشحة ملوّنة بالدّهشة، وكتيّب صغير متآكل الأطراف من ديوانٍ شعري مكتوبٍ بخطّ اليد لوالد سراج؛ «بين كوكبين»، كان عليّ الالتحاقَ سريعًا بمَهمّة تغطيةٍ إخباريّةٍ لصالح الوِكالة التي أعمل بها، التحقتُ بعد عودتي بيومين؛ يومان، قضيتهما في حضن جدّتي شكريّة التي حين رأتني ضحكت وبكت معًا.

العراق؛ الحرب على النّخيل، والنّساء

مخيّم «الخازر»، شمال العراق في إقليم كردستان، حيث الإقليم الذي كُتبَ على جبينه أن يبقى رهين الصّراعات السياسيّة التي تأكل من حضارة البشر، وتستبدل المنجز البشريّ بمجازر الدّم والعظم، وتستبدل إرث حكايا الشّعوب بإرث الحقد، والثّأر والأوجاع التي لا تنتهي إلّا بمزيدٍ من الدّم المُسال عبْر الأجيال.

في مخيّم «الخازر»، حيث تدرك أنّ الحرب كان غريمها الأوّل النّساء والنّخيل، الحرب التي تُحيل البيت الدّافئ الآمن في المساء إلى جنّة مُشتهاة في الدّنيا، لا أعرف كيف يستطيع النّاس أن يتركوا الوِسادة النّظيفة الدّافئة، ويلجؤوا إلى وِسادةٍ من كراتين وقشّ؟! كيفَ يفارق الأطفال ألعابهم التي استقبلوها بفرح ورجفة قلب، ويذروها في مهبّ القصف والتّهجير؟! كيف يا الله يتحمّل القلب أن يترك حافّةَ الشّبّاك التي كانت تطلّ على أجمل البنات، وأحنّ الجارات من أجل أن يسكن غرفةً من صفيح وجريد مدموغة بختم الأمم المتحدة؟! في المخيّم، كلّ شيءٍ يبعث على إيمانٍ مطلقٍ بأنّ الله يرسل البلوى، ومعها تمامًا السّلوى، حيث تشاهد نساء تضحك وتتسامر مع أُخريات، ورجلًا لم يستطع نسيان أنّه كان تاجرَ خردة «قدّ الدّنيا»، وبدأ في جمع خردوات المخيّم لبيعها يومًا ما، إنّه (مورفين) الله في البشر، «ترياق الأمل» الذي يجعل من كارثةٍ

ككارثة النزوح «فترة وتعدّي» في عُرف النازحين، وإن كان دماغي يقرأ أنّه سيطول عليهم الأمد.

سراج، كرديّ الأصل، كان مُعينًا لي فترة إقامتي في مخيّم «الخازر»؛ حيث الإقامة في معسكرٍ للأمم المتّحدة، كان يخفّف عنّي هذا الجوّ الحزين بكثير من ذكرياته في الطّفولة في «أربيل»، طفولته الشقيّة التي انتهت مبكّرًا، ليبدأ رحلة الهجرة مع والده (لبريطانيا)، ولتبقى «أربيل» الشابّة الجميلة في دماغه.

«مقبرة فيها أحياء»، كان هذا أدقّ وصف قرأته حينها لمخيّم «الخازر»، وكانت تغطياتي تركّز على رصد التحوّلات الاجتماعيّة في أنماط السّلوك البشريّ في هذه المقبرة التي تُدعى مخيّمًا؛ سارة التي بيعت ثلاث مرّات بين العصابات هناك، وبيدها طفل بعمر خمسة أعوام، وبالأخرى ثانٍ بأربعة أعوام، تمسك بهما بكلّ قلق الدّنيا، طفلة تُغتصب مبكّرًا، تنجب، وتربّي، وتحلم بمستقبلٍ آمنٍ تربّي فيه أطفالها مجهولي النّسب، وحتّى المصير.

في كلّ مرّةٍ تستاء فيها من درجة تحلية قهوتكَ، تذكّر أنّ هناك أشخاصًا لا يستطيعون حتى ترف التّعبير عن الاستياء من قارس البرد، وحين تبدي انزعاجك من عدم إتقان كيّ قميص، تذكّر أنّ هناك شخصًا ما في مخيّمات النزوح - التي لا تتوقّف عن التّوالد- يبكي فرحًا من قميصٍ يُجلب له ضمن حاوية ملابس قديمة، تأتي ضمن حمْلات المساعدات الخيْريّة، التي تأتي مثل العيد على المخيّمات.

أكتب لسراج يوميّاتي، وكان ينتظر رسالتي بفارغ التوجّس من أيّ غياب، أو انقطاع، تصله رسائلي دفعةً واحدةً، بعد نهارٍ أقضي معظمه في كتابة صور إخباريّة ترصد قصص النزوح.

التّغطيات الإخباريّة، والصّور، والأفلام الوثائقيّة، لا يمكن أن تعيد دفءَ وسادة البيت قيد لحظة، لكنّها الحروب التي لا تتوقّف عن ولادة الأخبار، والسّخرية تكمن في أنّ هناك من الأشخاص الّذين يقدّر لهم أن يعاينوا النّزاعات ويكونوا رُسُلًا، ليس بيدهم إغلاق فوّهة النّار، ولا تضميد الجرح، ولا وقف الدّم، لكنّها محاولات جادّة في رصد الوجع وإيقاظ الضّمير، الذي بتُّ أشكّ بأنّه حيّ أصلًا من تداول أخبار الحرب في العالم ولا مُجيب...

«صغيرتي هُتان، ما نمت طوال اللّيل، حاولت أن أتّصل بكِ لكنّ هاتفك خارج الخدمة، كوابيس غريبة، حلمت بأمّي تغزل من شعرٍ أسودَ مثل اللّيل سجّادةً طويلةً على النّول، وتقول خذها لهم، لا أعرف منْ هم، لكنّي قلق».

قرأت رسالة سراج في السادسة صباحًا، حاولت الاتّصال به لكن تعذّر الاتّصال، تمتمت في قلبي، وأرسلت له عبر الفضاء ذبذبات طمأنينة، وهدهَدْتُ روحه بكلماتٍ طيّبات، ماذا قلت في قلبي؟ هل صلّيت؟

لم أكن أعرف تفاصيل الصّلاة كما يجب أن تكون، لكنّ قلبي حينها كان موصولًا بالله، قلت للرّب أنّ سراجًا يحتاجك يا الله،

بحقّ كلّ خير أجريته على يديه في العالم، بحقّ كلّ فرح صنعه فنّه بالكون، يا رب كن معه في روعته.

دقائق قليلة، حتّى وصلتني رسالة أنّ الهاتف صار في وضع الخدمة وهاتفتُه، حين أتاه صوتي أجابني: «هُتان وينك؟ وله قلبي عليكِ»، أخبرتُه أنّ هذه رسالةٍ من الله أنّ أمّه تحتاج منه عمل خير، عمل شيء جميل لأُناس يحتاجونه.

أجابني أن لا مكان حاليًّا في دماغه أكثر من المقبرة كما كنا نسميه، أو المخيّم الذي أنا فيه، وطلب منّي أن أقوم بشراء سجّادات صوفيّة، وأغطية، وأوزّعها هناك، لبّيت طلبه دون تردّد، وذهبت من خلال وسيطٍ مجاورٍ للمخيّم، وابتعت الأغطية، وفي كلّ خطوة أمشيها، أدرك لماذا كان عليّ أن أشرّع قلبي من جديد بعد قصص عبرت حياتي كانت أقلّ من مرتبة حبّ، كنت قد تخلّصت منها تباعًا كفترات، وانتهت من حياتي دون أيّ مشاعر عميقة، ودون أن أتجاوز فكرة أن أبقى فقط المحبوبة، وأن لا أتزحزح من مكاني، قيد حكاية، لكنّه سراج القويّ الطّيّب الذي استطاع أن يدفعني لدور جديدٍ في الحبّ، أن يكون قلبي الفاعل، وأن لا أكتفيَ بدور تلقّي القصائد، وباقات الورد.

سارة وطفلها، كانا أوّل محطّة وزّعنا فيها تلك الأغطية، وثّقتُ فرحتها بالصّور وأرسلتُها فورًا لسراج، ربّما صورة كتلك تمحو آثار كابوسه، وتعيد الطّمأنينة لصوته الذي أتاني في الصّبح مُلتاعًا.

هل كانت كلّ أيّامنا خضراء كتلك؟ قَطعًا لا، فعلاقتنا مرّت بمدّ وعواصف، لم يحدث يومًا جزر؛ لأنّي أؤمن بأنّه متى ما حدث جزرٌ في المشاعر، يتعيّن عليّ التّوقّف فورًا عن هذا، والانسحاب إكرامًا لقيمةٍ عُليا تدعى الكرامة، كاذب من يقول أنْ لا كرامة في الحبّ، أصلًا قيمة الحبّ العُليا هي الكرامة، وهي الضّوء الحقيقيّ في أيّ علاقة، متى ما تعدّى طرفٌ على ضوء كرامة الآخر، غطّى جزءًا من ضوء الحبّ، وجلب العتمة التي تحجب التّفاصيل الجميلة عن عين المتحابّين، وحينها تدخل كائنات الظّلام لتعيش، وتتغذّى بالغيرة، والشّكّ، والخذلان.

هبط في بيروت، وقبلها هبط قلبي ألف مرّة، وأنا أستعدّ أن أرى بيروت لأوّل مرّة من انعكاس سراج، الكائن الذي ينمو في أطراف روحي يومًا بعد يوم، نصًّا بعد نصّ، كلمةً تلو كلمة، كما تنمو أشجار مخلب القطّ على سورٍ عتيقٍ وعريق، سور قلبي صمد طويلًا في قلب المدينة، وماتت على حافات صلابته مئات النّباتات المتطفّلة، إلّا هذه النّبتة الشّرسة الطّباع، استطاعت أن تحفر لها مخالب وردّية في جدار روحي.

في مقهى (أماثيست) في فندق (فينيسيا)، التقينا أوّل مرّة هنا في بيروت، بيروت التي تخلّت عنّي، وأنا التي تُقيم فيها منذ سنوات، وأصبحت تعرفه أكثر منّي، كانت مدينته أكثر منّي، يعرف كلّ شوارعها، مقاهيها، وحتّى أسماء دور نشرها، ومكتباتها. كنت قلقةً من اقتداره الفكريّ، أخشى أن يجتاحني بمدّه الرّوحيّ.

رتّبتُ لهُ المساء في مقهى صغير في (فردان)، كان يحبّ الأماكن القديمة، وينزعج من الأماكن التي لا روح فيها. لا أغرب من أن تجلس مكانًا بصحبة مهندس معماريّ، يرى المكان بطريقةٍ تجعل من كلّ حيّز هيكلًا تحرّكه روح المهندس الذي بناه، أو الّذي شاهد ما لم يمكن لك أن تشاهده...

تناولنا (نيرفانا)، التي طلب سراج من النّادل أن يحضّرها أمامنا، تعجّبتُ طلبَه، قال حينَها أنّ (النيرفانا) هشّة التركيب جدًّا، وهو غير واثقٍ تمامًا من أهليّة هذا النّادل في تحضيرها، طلب منها حجمًا صغيرًا على غير العادة، سألته: «شو القصّة؟»، قال: «لا أريد أن أُفجع بها، خسارة صغيرة بالمزاج أفضل من خسارةٍ كبيرة»، تفاجأتُ، كيف يستطيع أن يحييْ هذه القهوة وهي مجرّد مطحونٍ عبقٍ.

تبيع عمرك، وتطرح ذكرياتك للاكتئاب؛ كي تقامر وتربح سهمًا واحدًا في السّماء

الأيّام في بيروت بصحبة سراج، كانت إعادة تشكيلٍ لحياتي، كان يزعجه أن يوقفني زميلٌ لم أرهُ منذ سنوات، أو رسالة تظهر على شاشتي من صديق، كنت أُداري عنه أيّ كلمة يمكن أن تتسبّب في تعكير مِزاجه الخريفيّ القابل للانقلاب دومًا، واستقبال العواصف، كانت أرضه عامرةً دومًا بالعشب الجافّ، والقشّ، وكانت كلمةُ عفويّة منّي بمثابة عود ثقاب.

رجل يطارد زهو روحك، يُفتّح حتى ساكن جروحك، يهديك أغنيةً منسيّةً في الفجر، وفي الليل يدعوك لشرب فنجان من ذكريات طفولته، وشقاوته، التي كانت إجابات حقيقيّةً لقوّة طباعه، «تعلّمي معي أن تكوني واضحةً»، هذه الجملة التي كانت تتكرّر في كلامه لي، كنت واضحة بما يكفي، لكنّي امرأة لا تجيد تسكين الحروف، ولا تتعامل إلّا كغيمة لا تعرف متى تنتهي من رحلتها، ومتى تعبر من حياتك، كنت أخبره أنّي واضحةً بما يكفي كسراب.

كان يعاقبني بالشّكّ، وأعاقبه باليقين، يحاسبني على سنين لم يكن سراج قد بثّ نوره فيها، ويراقب التماعة عينيّ لو عبر اسمٌ، أو مكانٌ ما، كنت في غرفة تحقيقات متواصلة، ووددتُ أن يكون موقنًا أنْ لا أضواءَ الشهرة، ولا رشاقةَ المهرة، ولا حتّى عشرات

القصائد التي عبرت يومًا صناديقي السحابيّة، قد تملأ عينيّ مثل ما فعل نورُه في روحي، أصلًا، أنا نسيت كلّ الأصوات التي قبله، كلّ الصّور التي كان يُخيّل إليّ أنّها صور ستبقى معلّقةً على جدرانْ روحي، واكتشفت أنّي ألقمتها فورًا موقدًا من نار، وتخلّصت منها سريعًا، ليبنيَ هذا المعماريُّ تحفته الأهمّ في شاهق حياتي.

كتبتُ له ذات زيارة لبيروت رسالةً، وهو مشغول بهاتفه وأنا أجلس أمامه:

«أنا خائفة أن تنطفئ الدّهشة بيننا، أن ينتهيَ فتيل سراجك من حجرة روحي»

حين وصلَتْه، قرأتُ ملامحه وهي ترتبك، وكانت علامات الاستياء ظاهرةً على كل تجعيدة في جبينه، كان مستاءً من كلّ شيءٍ؛ من النّادل الّذي تأخّر في جلب قهوة (النيرفانا) الّتي يختار دومًا، غاضبًا من السّائق الّذي تحدّث معي بالطّريق ونحن معًا، غاضبًا من رنّة هاتفي، وأنّها تسبّب له توتّرًا، غاضبًا من كلّ شيءٍ حتّى من نفسه.

شيء ما... انطفأ، وشيء ما... اشتعل.

كلّ مرّةٍ أستقبله في بيروت، أتحسّس الأعشاب البريّة التي كانت في أرواحنا، وأخشى أنّها تحوّلت لأعشاب صحراويّة سامّة، كم بكيت، وكم تمنّيتُ أنّنا توقّفنا حين زرعنا بواكير أعشابنا البريّة بأقحوانها، ودهشتها، وتنوّعها، وجمّدنا المشهد، وتلاشينا قبل أن

نشهد هذا النّموّ الذي لم يكن يومًا بالبال، لكنّي مع كلّ هذا، لم ألتفت للأعشاب السامّة، وأبدلتها بكثيرٍ من الأغاني، والموسيقى، واللقاءات، وغبت قليلًا عنه كإشارةٍ للفت الانتباه، عاتبني لغيابي عنه أيّامًا هنا في بيروت؛ حيث يخبرني أنّه يجيء كلّ مرّة من أجلي، وأنّه ليس له في برنامجه المكتظّ بالعواصم، والصّفقات الضّخمة أيّ هامش لترف السّياحة، وأنّه يجيء فقط لهُتان، ومَن مثلُ هُتان؟ كان يكتب لي هكذا، قبل أن تبدأ اللّهفة بالارتباك والاشتباك مع ما حدث بعدها.

ذات لقاءٍ صباحيّ في (زيتونة باي)، تأخّر سراج قليلًا، هاتفته حينها لكنّ هاتفه كان صامتًا، أو هكذا أخبرني أحد برامج الاتصال، لم يكن بينه ونوم النّهار أيّ رفقة، شربت فنجان قهوتي الثّاني وأنا أراقب هاتفي، حتّى وصلت إشارة بأنّ هاتفه صار متاحًا، لم أتّصل به، لأنّ الانزعاج تلبّس صوتي، وبدأ التوتّر يطفو على سطح وجهي، دقائق حتّى جاءني صوته: «معلش تأخَّرت عليكِ، شحن جهازي نفد، ربع ساعة أكون معك، أطلبي لي أدسم وجبة في المطعم».

جاء سراج، والتهم طبقه الّذي اخترته له من دجاج مكسيكيّ، كنت أتظاهر بأنّ كلّ شيء كما ينبغي له أن يكون. يسألني: «لماذا لا تأكلين شيئًا؟»، أُجيبه: «تدري سراج؟ لو كنت معي قبل أنْ تأتي لكان قلبك يلمع، وليس وجهك!»، ورميت في وجهه منديلًا سميكًا على الطّاولة، ومضيت.

شاهدتُه، وأنا أحرّك سيّارتي، يمسح وجهه من آثار قطع تلمع بشكل رخيص على خدّه. في الطّريق، لا شيء سوى وجع الاصطدام بالأرض من على مسافة ألف قدم من صدر السّماء. بكيتُ كثيرًا، وكنت أقود سيّارتي باتّجاه البحر، يا رب؛ لا تكسر قلبي في سراج، أنت تعرف أنّي لم أفكّر يومًا أن أعبث في قلبه حتّى لو بنظرة، يا رب، أنت تدري كم خبّأت من جواهر قلبي طيلة سنينْ مضت، ووضعتُها كاملةً في عنقه وحده، يا ربّ؛ دعني أشعر أنّك هنا الآن، ولا تتركني امرأةً موجوعةً، وأنت أرحم الرّاحمين.

فكّرت أنْ أهاتف (لارين) حينها، لكنّني لم أفعل، لم أخبرها أصلًا في ساعات الودّ، حتّى أبدأ سرد كارثةٍ من قصّةٍ لا تعلم عنها سوى أحاسيسها، وشكوكها حولي، ماذا سأقول لها؟ وجدتُ آثار قطعة من مكياج لامع رخيص على وجه الرّجل الذي خطفني، مكياج رخيص مثل قلبه الذي بان زيفه الآن. لا لن تفعلي يا هُتان، صوني انكسارك، صوني انكسارك يا بنت.

أوقفتُ سيّارتي قريبًا من البحر، نزلتُ نحو الشّاطئ، خلعتُ حذائي، ومشيْت على الرّمل، كنت أريد لهذه الطّاقة أن تتسرّب من قدميّ للأرض، فكّرت أن أتّصل به، لكن، ماذا سأقول له أيضًا؟ أيّ وجع هذا يمكن أن يلغيه كلام، أو حتّى ملام؟ تمنّيتُ لو أنّ العمر توقّفَ قبل أن أتّصل به، وقبل حتّى أن أراه، تمنّيت لو أن بقيتُ كلّ عمري أحتسي الوِحدة ليلًا، ولا أكون ثانية في هذه النّيران التي لا

تُبقي ولا تذر في الرّوح، وحتى في القفص الصّدريّ.

تعبت من المشي، وجلست في مواجهة نفسي، والبحر، لأجد يدًا تحيط بكتفي، وصوتًا:

«يا مجنونة، أقسم أنّك مجنونة، لكنّي سعيد بأنّ أجمل مراسِلة صحفيّة تشعر بالغيرة على رجل مثلي، لماذا أنتِ سيّئة النيّة تجاهي؟ ليس ذنبي أنّ الوسادة الّتي نمتُ عليها بغرفتي عليها قطع لمّاعة».

شردت، وأنا لا يدور في رأسي سوى رجْعُ الذّاكرة في ذاك الّلقاء في الهند، وحديثي له عن وجع الخيانة، التي كانت حينها مجرّد توقّعات لشكل ذاك العذاب، الّذي عاينته من حكايا نساءٍ كُثُر، تداعَيْن يومًا على وسادة أذني، وقلبي، وطبّبتهنّ بكلّ ما أوتيت من حكمة، لقد كنت سابقًا أقول أنّ الخيانة بين المحبّين الحقيقيين هي موت بطيء بنسخةٍ أرضيّةٍ، حتى اكتشفت أنّه شعور فوق الموت حرقًا بكثير.

صدّقته لأنّي لست جاهزةً أبدًا لتكذيبه، صدّقه قلبي، لكنّ عقلي، كان يقف من هذا مشهد المرتاب.

وعُدنا أكثر قُربًا، تواصلًا، وربّما حذرًا.

كيف تكون عندما تقود سيّارتك على طريق محفوفٍ بالشّجر، وفجأة تتدهور بالطّريق، تعاين العالم من جديد، ربّما يكون مجرّد كابوس، أو حتّى من أعراض اختمار الحبّ كما يقول لي سراج.

كانْ فِي زياراته التّالية لبيروت، يراقب عينيّ دومًا، ويثور لو دمعَتْا لحظة، كان لا يريد أن يرى أنّي أدرك أنّنا نضيع، ويخشى من انتهاء الشّيء الذي يصنع الضّحكات في عيني والبلاغة في شفاهي.

مَهمّة جديدة تناديني في بغداد، ألتحق بها فورًا، بغداد السّيّاب، والشّعر، والأغاني، لكنّها هذه المرّة في حالة ذهولٍ ممّا يجري ويتسارع من تغيّرات تعبرها من إرث الحروب، والمُحاصصات السياسيّة حول حقول النّفط، النّفط مقابل الكرامة؛ هكذا كنت أقول حين أسمع السياسيّين يتحدّثون عن العراق.

أن تلمح ضوء نجم في سماء في بيروت، وتصطدم بنيزك في الهند، وأن تذوب في اللّقاء في بيروت مرّةً، ثمّ تبدأ بالتّوجّس ريبةً وخوفًا في اللّقاءات التّالية فيها، وأن تموت تمامًا في بغداد، هذا ملخّص سيرتي مع سراج، ويعبرك حنينًا نحو أعجوبة الأنباط، مدينتك التي لا تعرفك أحيانًا، «البترا»، وتقرأ بين الوقت والآخر، بعض الأخبار عن (السويد)، التي بقيت غامضة في حياتك إلا من بعض قصص والدك، ونتف الأخبار القليلة التي تسمعها عن جدتك لأمك هناك. وتسمع ما يمكن أن يعانيه فرد مأساته أنه ولد مطعونًا بالهوية؛ هوية المكان، كما أن تكون لاجئًا لا أحد يعترف بك، سوى المكان الذي طورت معه علاقةً تعايشيةً، كما في حياتي كبدوية من «البدول»، أو حتى في هوية اللجوء الجديد لكل من عاينت قصصهم في أطراف المخيمات.. وهل للُّجوء هوية؟

سراج الذي كان قد بدأ يتناقص حضوره كلّ يوم، أرسل لي بريدًا إلكترونيًّا:

«لنتوقّف هنا، أنتِ إنسانة عظيمة»

ينهار العالم في أيّار، وأبدأ مرحلة كآبةٍ عميقةٍ، تجعل رأسي بثقل قذيفة هاون، يمرّ الوقت، وأنا طريحة الفراش، تتراكم المَهمّات عليّ، توقفني الوكالة بطريقة مهنيّة. وحتّى تكتمل الغُربة، ترحل جدتي شكريّة، وأَنا في طريق العودة من بغداد لبيروت عبْر الأردنّ، كان وقع الخبر على والدي موجعًا، صوت بكائه على الهاتف ما زال حيًا في أذني.

على سريرها الوثير، رحلت جدّتي شكريّة بصمت، وبكميّات هائلةٍ من مسكّنات الآلام والنّسيان، نامت في أيار، حيث أواخر الرّبيع، لكنّها لم تفعل شيئًا سوى أنّها ماتت، غادرت من كانت آخر أهلي، السيّدة التي كانت حتّى بخرَفها، تذكّرني بالزّمن الذي كان لي فيه أسْرة، وبيت حقيقيّ، كانت آخر خيطٍ بيني وبين جذوري.

بقيتُ أنا و(داندي) في البيت، نتداول التّعزية والدّموع لمدّة شهر كامل، صديقتي (لارين) الّتي خاب ظنّها بي لطول الغياب، كان من الصّعب العودة لحميميّة صداقتنا؛ بعد أنْ تحوصلتُ خلال دخول سراج حياتي، كنت كائنًا يعاني من التوحّد، لا تستطيع روحي أن تكون مع شخصيْن حتّى مع رفيقة وحبيب، (لارين) الّتي كنت أحادثها باليوم ما لا يقل عن ساعتين وخمسين رسالة، أصبح تواصلنا

ليس أكثر من كلمتين، أو حتّى رسمًا تعبيريًّا على شكل قبلة إلكترونية صماء، مجاملة أطبعها على لوحة الهاتف، وأرسلها في السّحابة، كان عليّ أن أعود لحياتي، كنت لا أقوى على العودة؛ الفراغ الّذي خلّفه سراج في حياتي كان كبيرًا بحجم بيروت، وبحرها، وسمائها، كلّ شيء يتواطأ معه، الأغاني، والأماني، وحتى المقاهي، والأخبار التي تراكمت فوق رأسي، وأنا الّتي يبدو أنّي نسيت أنّي مراسلة صحفيّة تخصّصها الحرب.

هنا انطفأ النّور تمامًا، نعم أنا هُتان عقيل، مراسلة الحرب الشّهيرة، سجِّل سيّدي القارئ أنّ كلّ تاريخي الذي كان مكتوبًا في أعرق الصّحف العالميّة، وكلّ هالة الأضواء الّتي كانت تلاحقني في حياتي، تركتها طوعًا من أجل سراجٍ لم يدم طويلًا؛ ذوى، وانقضى.

كنت كلّ ليلة، أكتب له رسائل طويلة، وتنتهي بأن أمحوَها، كتبت له وأصابعي ترتجف من الوجع، وخيالي حينها يربط الأحداث، وينسجها بطريقة تجعلني أتذكّر كلّ تلك الإشارات الّتي عبرت أيّامنا معًا، وكم كان يتحرّك رأسه بمجرّد إطراءٍ عابر، كتبتُ له بوجع؛ أنْ كيف منحت يومًا وفائي لمن لا يستحقّ الوفاء، وحرمت هذا الوفاء أشخاصًا هم الأولى به، كتبت له جُملًا كانت هي سلاحي في مواجهة الدّمار الذي خلّفه، أكتب وأمحو، المهمّ أن يخرج هذا الخراب من صدري حتى أنجو:

«سراج، محزن أنّك اخترت أن تتبع السّراب، تُتاجر في إعادة إعمار الخراب، تتبع من أغفل الله الطِّيب من قلبه، فعلًا للسّقوط جاذبيّته الخفيّة.»

أكتب هذا وأمحو، أمحو؛ لأكتب من جديد ليخفّ عن صدري ثقل من حديد.

لم أكن أعرف تمامًا ما حدث بيننا، امرأة أخرى، خيانة كبرى، أو حتّى طال عليه الأمد في مطاردة نجمةٍ تأتي ليلةً، وليلةً تكون في مجرّة بعيدة، امرأة صعبة، وعنيدة، امرأة لا تضحك كثيرًا، ولا تعرف كيف تمطره بعبارات الثّناء، كما كانت كلّ حياته من النّساء العابرات اللّاتي أخبرني عنهنّ، امرأة لا تراه من بين الأبراج الكثيرة، لا تنظر لساعته المثيرة، ولا تلتفت لأسطول سيّاراته المترفة، بقدر ما تنظر للرّوح والطّفل الكامن في كلماته وضحكاته، كان سراج قد أشعل النّيران في شوارع أيّامي كآخر محاولة منه في تغييري، كان قد طال عليه الأمد في أن أكون نسخةً أرضيّةً من النّساء، وشخصيّةً محظيَّة، حتّى أشعل نيران الشّكّ، والغيرة بيننا، لم أكن أعرف يومًا أنّ رجلًا يهوى بناء الأبراج العالية، ويفكّك أصعب تراكيب الطّبيعة؛ ليبنيَ مكانها تحفته، لا يقبل كونك حجرًا نفيسًا، ويريد تحويلك لكائنٍ سهل الصّبّ والتّشكيل، هكذا لخّصتُ لصديقتي (لارين) حكايتي وعودتي من «هُتان في بلاد المصائب»، كما سمّتها هي بطريقتها الطّريفة.

قرّرتُ أن أطويَ صفحته من أيّامي، لا رسائل، لا كلام، بخاصّة أنّي فقدت كلّ شيءٍ في ذات الوقت؛ هدوئي الدّاخلي، وظيفتي، والأهمّ من هذا كلّه شغفي في صناعة قصص النّزوح، كان عليّ هدمُ كلّ شيء حتى أبني روحي من جديد، كانت حياتي خرابًا، أو هكذا صوّر لي قلبي المكلوم حينها، يبدو أنّنا ننغمس كثيرًا، وعميقًا في التعلّق حتّى نفيق على سقوطٍ مدوٍّ من علٍ.

أربعون جدّتي شكريّة، وقبرُها الّذي يقابل سفحًا في ضاحية بيروت، كان من الصعب نقل جثمانها إلى موطنها الأول حيث سفوح «جبال الشراة»، كم أحزنني أنها تدفن في مكانٍ بعيدٍ عن قبور أهلها، لكن حنانها الكبير، وتعلقها بي، جعلها ترافقني في رحلتي المهنية التي تداعت، وقرار (داندي) القاضي بالعودة لأهلها في (سيرلانكا)، فهي لا تطيق أن تموت مثل شكريّة، وفي حقائبها كثيرٌ من هدايا ابتاعتها لهم على مدار ستّة أعوام، كانت فيها (داندي) واحدةً منّا، كلّ شيء يرحل، كلّ شيء ينتهي، وعليّ مواجهة كلّ هذا وحدي، بقلب عارٍ.

ودّعت أحلامي دفعةً واحدة، لا أهتمّ بشيء، هناك وِكالة إخباريّة عالميّة ترسل لي عرضًا جديدًا للعمل في الأردنّ؛ حيث مخيّمات اللّجوء الجديدة للسوريّين، عمّان؛ حيث مرابع ذكرياتي الأولى ودراستي الجامعيّة، شيءٌ ما يشتعل في الرّوح من جديد، شيءٌ ما يخفّف ثِقل الحديد الذي أحمله على صدري، يا ربِّ، كن معي في

رحلتي نحوي، يا رب، أرجعني لها كما تعيد الشّمس الفجر من جديد، يا الله، يا ربَّ القلوب، ساعدني في العثور عليها، هُتان عقيل.

هُتان عقيل

هُتان عقيل

عمّان، مدينةُ في ثوب قرية...
عمّان؛ لا تكبري... لا تتبرّجي

عدتُ إلى عمّان، بضعة شهور كافية لتهدئة النّيران، وجعلها أخفَّ اشتعالًا في روحي، الألم أقلّ في جروحي، الموسيقى أخفّ ندوبًا، أمّا أرقامي الجديدة الّتي قرّرتُ أن تكون لي وحدي، وبعيدةً عن عالم سراج، كانت وسيلةً في معاقبته، نحن نعاقب كلّ من نتوقّع أنّه من الممكن أن نسمح له أنْ يعود في حياتنا مجدّدًا، لكنّ النّسيان قربان أخير لمن أقفلنا فوّهات القلب عنهم، وأقمنا عليهم حدّ التّلاشي.

كائن جديد، لا عائلة، ولا بيت، فندق صغير في قلب عمّان، وهاتف يرنّ مرّة، أو مرّتين بالنّهار من (لارين) التي تعاين روحي الّتي حلّقت جريحةً على أمل أن أُعافى في مكان جديد، وبضعة اتصالات أسبوعية من والدي، الذي يبدو أن التعب والمرض شرعا ينالان من همته التي أعتدنا عليها.

(لارين)، الّتي مارستُ عليها أنانيّتي، وابتعدتُ عنها فجأةً بعد أن كانت ظلّي، وهجرتها طوعًا في لجّة فرحي بسراج، هي الآن مَنْ تربتُ على جروحي، وتعاين تقدّمي في مرحلة التّشافي، كانت (لارين) نعمةً أسبغها الله عليّ .

في زحمة اللّجوء، وطريقي اليوميّ من عمّان نحو شمال شرق الأردنّ، ومدينة المفرق؛ حيث أحد مخيّمات اللّجوء، كنت أتعافى ببطْءٍ، على صيفٍ هادئ، لا لقاءات، لا فساتين تنتظر بشوق أن تفارق الخزائن لموعد مسائيٍّ، لا لهفة في أن تختصر الأرض مسافاتها؛ كي ألتقيَ شخصًا ما، كلّ شيءٍ كان كما هو بوجهه الحقيقيّ، لا إضافات، ولا فوران للّهفة، كلّ يوم كان يشبه الآخر.

هل يبحث عنّي الآن؟ هل يقتفي أثري كما يقطع قَصّاص أثرٍ بدويّ آثار أقدام راحلته التي ضلّت؟ هل حاول الاتّصال بأرقامي التي أوقفتها كلّها؟ هل عاود الإرسال لبريدي الذي كان آخر شاهدٍ لخراب كلّ هذه الانتكاسات؟ كانت ظاهرةً صحيّةً، كما أخبرتني (لارين) الخبيرة في شؤون التّعافي العاطفي، كتبَتْ لي وصفة التّعافي كما عنونَتْها في رسالةٍ قصيرةٍ:

«شيئًا فشيئًا، ذكرى فذكرى... إلى أن ينتهيَ منكِ تمامًا، ويصبح مجرّد تذكّره عبئًا مملًّا».

« من الرّمضاء للنّار »

في طريقي من شمال شرق الأردنّ؛ حيث مدينة المفرق وباتّجاه أوّل لقاءٍ لي حيث مكان عملي الجديد، عبرت صحراء واسعة، تبدّدت تفاصيل المدينة شيئًا فشيئًا؛ حيث اكتست جوانب الطّريق بالحصى البازلتيّ، وكانت ملامح الأرض حينها تشي بقساوةٍ ذكّرتني بقساوة وصلابة الأراضي في مكّة، تلك المرّة الوحيدة الّتي ذهبت فيها لأداء العمرة مع عائلتي «جدتي، والدي وشقيقتي عائشة وجدي»، حيث لن أنسى هناك رجلًا بلحيةٍ كثّةٍ، وثوبٍ قصير، وجّه لي شيئًا يشبه الخيزرانة، وقال: «غطّي شعرك»، كنت حينها أتدرّب على التِفاحِ الشّال الأسود لأوّل مرّة، ويبدو أنّي لم أكن أرتديه بالطّريقة الصّحيحة في عُرفه.

وحدث اللّقاء الأوّل بيني وبين «الزّعتري»، صفوف من الخيَم بأعدادٍ لم أكن أتخيّلها يومًا، يااااه! كيف يهجر السوريّ أرض الدّيار، وغابات الياسمين، وعيون الماء، ويستوطن مخيّمًا قاسيَ الملامح من أجل نجاة، كيف ينجو من جمالٍ تحوّل لقذائف هاون، وغاز كيماويّ؛ ليرتميَ في حضن خيمةٍ مدموغةٍ، ويقاسي كلّ هذه البيئة، أوقفتُ أسئلتي، ودخلتْ.

«جهازات عرائس»، «أراجيل»، «بطاقات موبايل»، مظاهر من التمسّك بالحياة في زحمة القبح، الذي يتركه المشهد الرئيسيّ في

المخيّم، ما الذي جاء بي هنا؟ من وجع القلب في بيروت حتّى وجعٍ جديدٍ في صحراء «الزّعتري»، هو نفس السّبب الذي جاء بهم جميعًا هنا.

مرّت الأيّام الأولى، وأنا أجمع منها قصصًا كثيرةً تبدأ بدمعة، وتنتهي بضحكة، كان جليًّا أنّ السوريّ لا يستطيع أن ينسلخ عن حبّه للحياة، وأنّ التّاجر الذي في داخله، لا يمكن لحربٍ ولا لنزاعاتٍ أن تمحيَ طبعه في البيع والشّراء!

سراج، سراج، سراج، لا شيء في هذا اللّيل الصّحراويّ في طريق العودة من المخيّم نحو غرفتي في فندق (بيلا فيو) في جبل عمّان، طوال الطّريق المقفر يزداد الألم، حتّى تلوح لي أطراف المدينة وأضواؤها فيخف الوجع، ويتوسّد الحنين ثوبه، ويغفو قليلًا في صدري.

أستذكر تلك الحوارات النّاريّة التي كانت تندلع بيننا، وكيف تحوّل الودّ لمساحةٍ من استعراض القوى، واشتعلت سيقانْ الأزهار التي زرعناها في حياتنا حين جفّت تمامًا من اللّهفة.

كلّ صبح، تجهّز لي عمّان القديمة عدّتي من الغيم، والحيرة، وأصوات السيّارات النّزقة كما الأمزجة هنا، وأتحرّك في حافلة صغيرةٍ تقلّني، ومجموعة مراسلينْ من عدّة وِكالات، لنيمّم نحو تركاتْ الحرب الأثقل. في الطّريق، كلّ مرّة، يناديني الضّياع في مدى الجهات... سراج، سراج، سراج.

الوجع ماثلًا، كاملًا في عجز الإجابات، أنا أم هو؟ أم كلانا قتل ذاك الضّوء الذي كان يشعّ من تعابير وجوهنا حين كنّا معًا على مدى قُرابة عامين أو دورتين فلكيّتين؟ لا يلتقي الحوت ببرج الأسد حتّى في الطّبيعة، لكنّنا فعلناها والتقينا كملوك ضمن ممالك مختلفة، ومنفصلة، لا الأسد ينبغي له أن يطارح الحوت اقترابًا، ولا الحوت ينبغي أن يقارب ملك الغابة إلّا انتحارًا، هذه بعض الإجابات التّلقائيّة، التي كان الرّدّ الآليّ في روحي يُجيب «كمشة» الأسئلة التي تنثرها الطّريق في وجهي كلّ صباح.

الشّمس اليوم صريحة أكثر من اللّازم في المخيّم، شيء ما يبعث على الحياة، حتّى وإن كانت أمامي الآن سيّدة بعمر أمّي لو كُتب لها أن تعيش كما ينبغي للأمّهات، تبكي، وتنتحب. اقتربت منها؛ انهيارها منعني من السّؤال، لكنّ ما رشح من كلام النّساء اللّاتي تجمهرن حولها، أنّ ابنتها الّتي تركتها تتعالج في سوريّة من مرض السّرطان، سقطت البارحة بقذيفة هاون دكّت المستشفى، ودكّت حتّى سرطانها الّذي كان من أندر الأنواع، جعلني ما سمعته أتمتم لنفسي: ياه من موتٍ لموت!

أيّ قسوةٍ تلك الّتي تحتمل نفس الإنسان أن تكابدها، أحاور نفسي، وأقول: «اسكتي يا بنت، اسكتي يا هُتان، لا تهزّي إيمانك بهذا التمرّد الرّوحانيّ».

كان بودّي أن أفرح، لكن ببساطة، لم تُتَح لي فرصة كافية لاختبار الفرح، فمنذ سراج الّذي تسلل إلى عالمي، ورحل مثل نيزك، وأنا في دوّامة الرّوح الشّفافة التي تشبه قميصًا من شفّاف الحرير، يظهر كلّ تفاصيل جسد الرّوح، وتغضّناتها، لا يقي من بردٍ، ولا ينفع من حرّ، لكنّه قميص والسّلام.

في المساء، توجّهتُ لمطار الملكة علياء، لاستقبال ضيفتي الأولى هنا، (لارين)، بدأت أنتعش روحيًّا وأستعدّ لفكّ خطّ اللّيل العمّانيّ، الّذي كنت أتوق لاختباره مع رفيق، كنّا على وشك التّشردق بالكلام والحكايا طوال الطّريق، الّذي أقلّتنا فيه سيّارة أجرة كان سائقها يشاركنا حتى الحكايا والخبرات، وامتدّت المشاركة، ليخبرنا قصّة طفله المريض الّذي يحتاج علاجًا ولا يجد ثمنه. شاركته بضعة دنانير إضافيّة، وأنا متيقّنة من أنّه كاذب.

في الغرفة، حكينا، وبكينا، وغنّينا، أجمل ما في اللّقاء مع (لارين)، أنّي لا أشعر بحاجتي لمقدّمات زمنيّة، بالرّغم من كلّ الفواصل الزمنيّة الّتي عبرت بيننا، نحن نتابع الحديث وكأنّنا كنّا معاً بكلّ التّفاصيل.

سألتُها عن كُرام، أجابتني: أنّها صادَفتْه في (علايا) في حفل عشاءٍ فاخرٍ ببيت برلمانيّ سابق، وكان يطهو -على رأيها - مثل «الكلب»، وكان يتصبّب العرق من جبينه، ويفتعل الضّحكات المتكلّفة، وأنّه حين رآها سألها: «مبسوطة هيك؟»، أجابته: «أكثر من هيك، عبَث». هنا تذكّرتُ أن أخبرها أنّ لديّ فضولًا لأنْ أعرف ما هي الكلمات التي أرسلها في رسائله القصيرة لهاتفها -الذي نسيَتْهُ معي ليلة حادث العشاء الأليم-؟، قالت: «كلمات باردة مثل وجهه،

وأعذار أبرد من الّلحم النّاشف الّذي يشبه قلبه المجمّد»، ضحكتُ من قوّة ردّها، وقلت لها: «أنت مجرمة حرب».

حبور وسرور بدآ يملآن الجوّ، لكنْ لا أحد يعرف كيف يمكن لبضعة مركبات كيماويّة تعبر غدد جسدك، وتسمّى «هرمونات» أن تتداخل مع المزاج، وتترك فيك نُدبةً في منتصف جذعك، وألَمًا لا يشبه ألَمًا آخر، في كلّ موعدٍ شهريّ أسأل نفسي: «كم طفلًا وطفلة يُذبحون في جوف أرحام النّساء، قبل أن يُكتب لهم أن يتحوّلوا من بويضةٍ صمّاء لبويضة فيها روح ونماء؟»، كلّ شهر أعاقر هذا الوجع، وأنا الّتي لم تختبر الأمومة يومًا، كلّ حنان الدّنيا الّذي بقلبي مرصود، مرصودٌ للجحود.

توشّحتُ رداءً قدّمته لي لاجئة سوريّة تعمل في حياكة الصّوف، السيّدة الّتي نسجت هذا الوشاح من صوفٍ مستخدمٍ، جمعته من بقايا «كنزات» صوفيّة، وأعادت نسج خيوطها.

ونحن في الطّريق مشيًا نحو مطعم «سفرة» في جبل عمّان، رنّ هاتفي، الذي منذ أن حملت هذا الرّقم لا يلمع في شاشته إلّا النّزر القليل من اتّصالات الوكالة، أو السّائق الّذي يقلّنا صباحًا ومساءً، واتّصالات (لارين)؛ الّتي تمشي وتتوسّد ذراعي، رقم غريب، أجبته، صوت يبدو أليفًا، أو ربّما مخيفًا؛ لأنّ كميّة الألفة التي في السّلام والكلمات، كانت غريبةً على شخصٍ مثلي، آثر أنْ يكون وحيدًا بعيدًا عن زحام العلاقات.

«كيفك يا هُتان؟»

«تذكرين أوّل قصيدة نشرتها في جريدة الطلبة؟»

«أوّل مرّة تحصلين على إنذارٍ جامعيّ؟»

«حين وجدت صرصورًا يمشي في حقيبتك؟»

«حين سألك مدرس مادة العلوم العسكرية ما اسم عشيرتك، ودخلت في جدال معه حول «البدول؟»

كلّ هذه الذّكريات، كان يملك مفاتيحها معي (ميشيل)، الّذي كان يتشارك معي النّفاذيّة العالية للكلمات والموسيقى، فرّقتنا الحياة فور التخرّج من الجامعة، هو ذهب للعمل في القاهرة، وأنا عُدْت لعمّان، ومن بعدها التحقت بالعمل ببيروت، الطّريق للمطعم امتدّ دقائق، و(لارين) تعاين الانسجام الّذي غلّفني، والألفة، وأنا أحادث رجلًا غريبًا لا تعرف عنه شيئًا.

وصلنا المطعم، وأنهيت الاتّصال، جلسنا على العشاء، وكان المرح والسّرور يجلس على ثالث المقاعد، شهيّتي نحو الطّعام بدت أفضل، وحتّى نكهات الطّعام صارت واضحةً في فمي الّذي منذ شهور ألف القهوة، والشّاي، و(الكروسون)، وقليلًا من الطّعام الّذي أتناوله حين أشعر أنّني على وشك الانهيار.

شعرت (لارين) بحماسي، وأعدْتُ لها ما كان بالاتّصال من مفاجآت؛ حيث (ميشيل) الّذي اقتفى أثري، الّذي كان يمتدّ منذ أكثر من خمسةَ عشرَ عامًا، ليجد اسمي ضمن قائمة الشّخصيات

الّتي تؤمّن لها شركته الأمن والحماية، وتعمل في عدّة عواصم عربيّة.
ضحكت (لارين) حين كانت تشاهد وجهيَ المضيء، وأنا أناظر شاشة هاتفي، وأبتسم. أخبرتُها أنّ (ميشيل) كان رفيقًا برتبة قدّيس وَغد، يحفظ المزامير، وبنفس الوقت يحفظ كلّ الموروث العربيّ من الشّتائم!

مرّت شهور، وأنا أعدُّ تحقيقًا استقصائيًّا عن الصّحة النّفسيّة للنّساء اللّاجئات في مخيّم «الزّعتريّ»، أنْ تكون باحثًا علميًّا في موضوع صحفيّ هو قمّة النّضج المهنيّ، أنْ تضع مشاعرك جانبًا، وتحتكمَ للفرضيّة، والمشكلة، والمنهج، وتمشي في درب الاستقصاء، هو خميرة العمل الصّحفيّ.

التقيت أكثر من ثلاثمئة وخمسين سيّدةً وفتاة؛ نساء طالتهنّ الحرب قبل حدوثها، الحروب الصّغيرة في البيوت العربيّة، تأثيرها أكثر عمقًا من ضربات الصّواريخ، وحروق الفسفور، وحتّى أبخرة الكيماوي، نساءٌ وصلن للّجوء، وهنّ مثخناتٍ بالنّدوب العاطفيّة والنّفسيّة. لم أعرف رجلًا إرهابيًّا بالفطرة أكثر من الرجل العربيّ، هو جاهز للنّزالات العاطفيّة فورًا، يحبّ بشدّة، ويكره بشدّة أكبر، يهدم المعبد فور أن تنتهي قداسة العلاقة، لكنّ كلّ هذا لم يكن في نتائج التّحقيق، الذي سلّمته للوكالة بالحقائق، والأرقام، والتّحليلات.

خلال هذه الفترة، بدأتُ الالتقاءَ بصديق الدّراسة (ميشيل)؛ نلتقي في عمّانْ في إجازته الّتي حوّلها من شهريّة لأسبوعيّة، منذ أنْ بدأنا إعادة ألقٍ جميلٍ للماضي يشبه الصّداقة؛ صداقة يتوّجها العمق والنّضوج.

في زيارة جدّة (ميشيل) (ماري)، الّتي تسكن في مأدبا؛ حيثُ اصطحبني عبر بيوتها القديمة نحو بيتٍ يطلّ على «جبل نيبو»، أخبرتني جدّته أنّها الآن عرفتْ فقط لماذا تفشل محاولاتها في الإلحاح على (ميشيل) بالزّواج حين عرفتْ أنّي لست متزوّجةً بعدُ، أخبرتها أنّ الأمر مختلف تمامًا، ونحن مجرّد أصدقاء لم نلتقِ منذ زمنٍ طويل.

في أحد لقاءات نهاية الأسبوع؛ إذ تزامن اللقاء مع نشرِ تحقيقي الاستقصائيّ في صحف عالميّة، كنت أتنقّل من لقاءٍ تلفزيونيّ لآخر عبر الفضائيّات الّتي تبثّ من عمّان، وكنت حينها أعاين الضّوْء مجدّدًا بعد فترة بيات مهنيّ وعاطفيّ امتدّ لعام تقريبًا، أخبرني وقتها (ميشيل)، أنّه يشعر بشيء من الفخر، لأنّه رافق ميلاد تحقيق صحفيّ كهذا، وأنّه حين يعود لمكتبه في القاهرة، سيبدأ بعمليّة تتبّع «جنونيّ» - كما كان يسمّيه- من أخبار، أو تصريحات تنقلها الوِكالة على لسان «مراسلتها الأبرز»، كما كان يراني.

يمرّ الوقت، والجرح العاصف يتوقّف عن النّزف، لكنّ النّدبة تحتاج علاجًا سحريًّا أو مادّةً تستطيع تمويه سطحها، كان هذا هو (ميشيل)، الّذي صار الصّبح يطلع منْ سنا رسالته الّتي تأتيني مع الفجر، كان سراج حينها ينفد زيتهُ من الذّكرى في داخلي، أو ربّما شعرت هكذا.

(لارين)، في تلك الأوقات، كانت تطير بين دبيّ، وعمّان، وبيروت؛ حيث التحقت كمحرّرة في دار أزياء عالميّة، وكانت تتابع

كُرام من حسابها الوهميّ في تويتر، وترسل له يوميًّا تغريدات تسخر منه ومن طريقته في الطّهي «الملكيّ» - كما كان يسمّيه-، وكانت ترسل لي صور تلك التّغريدات الّتي تضحكني حتّى وأنا في قمّة انشغالي.

«أمر باسمكِ في الصّحف، أشاهدُ ما تصنعينه من مجد، سعيدٌ لأجلكِ، وحزينٌ من أجلنا، لو كان ممكنًا أن أسمع صوتك، سيكون حدثًا عظيمًا، شكرًا للصّحيفة الّتي نشرت عنوان بريدكِ الإلكترونيّ. سأنتظر صوتكِ أو على الأقلّ رقمكِ».

سراج - الذي كان-

بنفس ارتفاع أعلى برج شاهقٍ شيّده سراج في إحدى العواصم، تصلّبت كرامتي الّتي كانت قد ذُبحت من غياب بلا عتاب، بلا خطّة أمل، بلا سيناريو للقادم، أقفلتُ جهاز الحاسوب، ومضيتُ نحو جهاز المشي في الفندق الذي أُقيم فيه، لاجئةً من قصّة حبّ، تترك المدينة الّتي كانت شاهدًا على الجرح، وتعدو في مرارات اللّجوء؛ لتعاين لجوءًا من نوعٍ آخر.

امشي بسرعة، بسرعة...

أتركي كلّ شيء خلفك يا هُتان، لا تلتفتي للوراء أنظري لحياتك الآن دونه، أركضي نحو المساحات الجديدة، تذكّري الوجع المُقيم ليلًا، تذكّري الأسئلة التي لم تطيقي عليها صبرًا، أقيمي سورًا خلفكِ كي لا تلتفتي للماضي الّذي يربطكِ برجلٍ عصف بحياتك، وغاب.

تصبّبتُ عرقًا، أوقفتُ الجهاز وأنفاسي تشهق، وكذلك صوت بكائي في النّادي الرّياضيّ الصّغير، لا سواي، وقليل من العصافير الّتي تغرّد في جوقة عزف طبيعيّة.

كان لديّ فضول بأن أعرف لمَ حدث كلّ هذا الانطفاء، لكنّ مثلي لا يُباح لها لهفة، تذكّرت العرّافة، وكلامها عن فقدٍ كبير، تذكّرت كلّ شيء، كلّ تلك الشّؤون الصّغيرة الّتي تصبح في لحظة شؤونًا عملاقة، وخطيرة، وتصبح بمثابة مارد يطاردك، ويلتهمك.

نجاح يعبر الفضائيّات، وخبرة تنمو في شؤون اللّجوء، وشبكة علاقات تكبر يوميًّا في عمّان، لكنّني كلّ نهار أعود لهاتفي؛ حيثُ ألتقي (ميشيل) بكلّ ما أوتيتُ من عفويّة، أنسى كلّ هذا الصّخب الجديد، وأعود هُتان الطّفلة التي تتشارك نهارها مع رفيقٍ مُقيم في الرّوح، (ميشيل) كان يعرف أنّ هناك نُدبةً في روحي، وطالما طاردني بأسئلته عن ذاك الرّجل الّذي يراه في عيوني حين تشرُد، أنكرتُه تمامًا، جحدتُه جدًّا، لكنّه كان يقرأني.

(ميشيل)؛ أنت السّاكن في القلب، أنت نافذة تطلّ على بساتين مأدبا، أعتذر لأنني جعلتك تنتظر طويلًا لأُجيبك عن سؤالك؛ «من أنا في حياتك يا هُتان؟»، كنّا نحتاج كثيرًا من المسافات حتّى نصل إلى هنا، أنت الرّجل الّذي أريد أن يجد لي طريقةً كي يعود قلبي صالحًا لنبض الحبّ ورجفة الشوق، بيدكَ أنت لا سواك، دعنا نحاول، ولو فشلنا لن نخسر شيئًا أكثر فداحةً من سنين عمرنا الذي مضى».

أرسلتها، وخلال ثوانٍ، كانت مقروءةً، كنت أدرك أنّ الصّدمة ستجعله يحتاج دقائق إضافيّة كي يعدّ جوابًا.

ساعةً، اثنتين، يومًا، لا شيء منه، وحتّى ظهوره كان شِبه معدوم على تطبيق التّراسل، كنت قد غرقت في بحر الحيرة مجدّدًا، وشعرت بندم يأكل روحي، كيف أرسلت له الجواب هكذا؟ كان يجب أن أُبقيَه في لجّة السّؤال، ومواجهة لذّة الاحتمالات الوفيرة.

سراج، سراج، سراج، سراج، سراج، سراج، سراج، سراج، سراج، سراج، سراج، سراااااج؛...

كلّ الجهات تناديه، كلّ سطوح الأشياء تحمل اسمه، كلّ الأصوات تشبه صوته، كلّ إشعارات البريد الإلكترونيّ تذكّرني به، ماذا حدث؟ كنت أتوقّع أنّي شُفيت تمامًا من سرطانه الأطيب، لكنْ يبدو أنّ الحبّ الكبير لا يتعافى بالوقت، وإنّما يختمر كزجاجة نبيذٍ فرنسيّ.

(ميشيل)، وجدته فوق رأسي في بهو الفندق الّذي أُقيم فيه، يحمل باقةً من الزّنابق البنفسجيّة، مع بطاقة تحمل «زنابق تذكّرني بك»، ضممته والباقة، ومضينا نحو الحانة المجاورة، أخبرته عن الرّجل الّذي ضمّ زنابقي يومًا في أرضه، أخبرته كلّ شيء، كان بالأصحّ يراه في تغضّنات جبيني، ورعشات يدي، وأنا أمسك الكأس.

كان (ميشيل) يستمع إليّ وعيناه بعيدتان شريدتان، وكأنّه يعاين خرابًا، لا أعرف ماذا حدث بعدها، لكنّي أفقت في سريري على صداعٍ شديدٍ، ورغبةٍ في البكاء، كانْ (ميشيل) قد ترك لي ورقة مكتوبًا عليها «الزّنابق مهما ضَمُرتْ في الشّتاء، لها موعدٌ في الرّبيع»، قرأتها، وأمسكت رأسي، وقلت: «أيّ كارثةٍ فعلت؟».

لا أعرف شيئًا سوى أن أخبرته عن ذاك السراج الّذي هو خيبتي الّتي داريتها طويلًا، يا للحماقة!

كان ضياعًا لذيذًا أن يضيع قلبك بين حقبتين؛ حقبة الماضي الذي بدأ يشدّني منذ آخر رسالة إلكترونيّة من سراج، وحقبة الحاضر الّذي يرافقني فيه (ميشيل)، دون عهود... دون مواثيق، سوى حقول من التّفهّم، والتّناغم، والهدوء. هل أترك حقول الهدوء والأمانْ، وأرمي بنفسي مجدّدًا في غابات سراج بكلّ ما فيها من بريّةٍ، وصخبٍ، وجنونٍ، ومتعةٍ؟ هل أترك اليابسة، وأسكن صخرة في منتصف البحر؟!

«طريقة عمل «البربارة»:

كوب قمح مسلوق

كوب صنوبر

نصف كوب فستق حلبيّ

نصف كوب ماء ورد

نصف كوب لوز مسلوق ومقشّر

نصف ملعقة هال مبروش»

كسرتْ هذه الرّسالة، الّتي وصلتني عبر البريد الإلكترونيّ حدّة الحيرة الّتي غمرتني، من بريده الرّسمي، يرسل إليّ (ميشيل) مكوّنات طبق «البربارة»، الّتي سبق وأن تناولناها يومًا في بيت جدّته (ماري) في مأدبا، وحينها، كم استمتعت بها، كنت أستمتع بأيّ طبق يحتوي حبوب القمح.

القمح فيه سرّ الحياة، تلك البذرة المباركة الّتي ذكرت في الكتب السّماويّة، والّتي قامت بسببها ثورات وحروب، ردَدْتُ على البريد فورًا برسالة: «سأصنعها لكَ في أقرب زيارة، لكن ما تقارن بركة يد (ماري) بيدي المجنونة»، دقائق لتصلني: «البركة أصلًا هي قمح جنونك، لا تنسَي أن تضيفي قليلًا من الزّعفران حتّى تجلبي بلاد فارس أيضًا للطّبق».

لم أعرف رجلًا يناضل من أجل تقلّبات مزاجي أكثر من (ميشيل)؛ (ميشيل) الّذي منذ أن تفتّحت عيون روحي على الأدب، والفنّ في مقاعد الدّراسة الجامعيّة كان موازيًا لاهتماماتي. أوّل حصّة تأمّل على سطوح بيتٍ قديم في جبل اللّويبدة مع مجموعةٍ من الأجانب كانت برفقته، حينها كان القمر بدرًا، وشرح لي أسطورة قمر الحصّادين، تأمّلنا ساعتين في ليل عمّان، وأوّل جملةٍ قالها لي حين أنهينا الجلسة حينها: «تتعشّي حمّص في هاشم؟»، وأذكرُ أنني أجبتُه: «بعد كلّ هذا التّأمّل؟ حمّص يا مفتري؟ فول ممكن». مرّت

أقمار حصادٍ كثيرة بعدها، لكن يبدو أنّ الزّمن أعادنا مرّةً أخرى؛ كي نزرعِ بيادرنا في ضوء قمرٍ جديدٍ، قمر له قدرة كبيرة على جذبي.

«كانت المدينة باردةً، لكن منذ مجيئكَ صارت وطنًا»

«كم مرّة قرأتِ رسالة سراج الإلكترونيّة الأخيرة»، تسألني (لارين)، أجبتُها كذبًا مرّة أو اثنتين، وبعين الحقيقة، قرأتها مرّة أو اثنتين على الأقل، لكن بعد المئة.

«كانت المدينة باردةً، لكن منذ مجيئكَ صارت وطنًا»

أرسلتُ هذه العبارة لـ(ميشيل) بشكل مفاجئ، كنت أهرب من سراج من خلال الرّكض نحو (ميشيل)، كلّما تذكّرت سراجًا، باغتُّه بنسيانٍ منظّم، من خلال مفاجأة (ميشيل) بكلمات تنهمر فجأة على بريده، أو هاتفه، لكَ الله يا (ميشيل)، لكَ الله، ولقلبك الهادئ الغافي على فوّهات بركان يُدعى قلب هُتان.

دخلنا شهر رمضان، الّذي أعادني لذكريات الدّراسة الجامعيّة في عمّان، هذا شهر كثير جدًّا على الّذين يعيشون فُرادى، صوت الأذان حين يرافقه من البيوت المجاورة لسكني صوت الملاعق، والأطباق، والحركة، ووتيرة الكلمات حين تتعالى، والضّحكات مع مرور الإفطار، وأنت تجلس وحدك تعاقر وحدتك في شهرٍ كانت روحه في اجتماعات العائلة والأحبّة، كان يحتاج منّي الإفطار بضع دقائق، وأبدأ بعدها رحلة في التّزوّد من (الكافيين)، وكأنّها آخر فرصةٍ لي في التزوّد بالقهوة، حيث حبّي المرّ العذب، وبعدها أنكفِئ على جهازي في مقهىً في وسط البلد.

في هدوء المدينة، وهي تستعيد حيويّتها بعد آذان المغرب، كنت أستعيد بعضًا من ذكريات طفولتي في «أم صيحون» ؛ حيث الذّكريات الرّاسخة في الرّوح، حيث سوق معان القديم، وصحبة أبي، كنّا نشتري الهريسة من «سُندس» معان، والسّمبوسة، والكعك المعاني الّتي قبل أن نصل البيت، كانت تصل لبيوت عمّال يعرفهم أبي، ويبادلونه الحنان بالمحبّة.

كانت شقيقتي عائشة تذكر دائمًا حلوى سويدية، كانت والدتي تطعمها لها (السيملا)، وتحاول استعادة طعمها وتصفه لي ونحن «نقرط» كعك معان المصفر بالكركم وحبوب القزحة، وكانت تذكر تفاصيل من حياتها مع والدتي ووالدي هناك، كانت تتأثر أكثر مني حين يعبر أسم والدتي أو يذكرها والدي، ويذكر عشقها للشرق وللغة العربية التي أتقنت منها كلمات لا بأس بها، كانت عائشة تتحدث عن أربع سنين في الطفولة الباكرة في (السويد)، وهذه كفيلة أن تجعلها سويديةً أكثر مني أنا البدوية، التي يصعب لأيّ أحدٍ أن يتخيل أن تكون لك تلك الجذور الإسكندنافية.

في رمضان، تتصفّد كلّ شياطين العالم، لكنّ شياطين إلهامي في الكتابة كانت يقظةً ومتمرّدةً، كانت غيوم تحميس حبوب البن الّذي تجيده جدتي كل مساء بعد الإفطار جزءًا مهمًا من ذاكرتي الحسية، ففيها يرتبط هذا الطقس ببدء السهر وأحاديث المساء التي كان معظمها من حصاد حياة الدِلالة والسياحة في أركان المدينة النبطية،

يذكر والدي قصة سائحٍ يهوديٍ سقط من أعلى صخرة، وأسعفه والدي حينها إلى مستشفًى معان.

مر رمضان كاملًا في عمّان، ولم أرَ فيه (ميشيل)، حيث كان في رحلةٍ بعيدةٍ، كتابة، ويقظة طويلة، وزيارات متقطّعة نحو المخيّم، صار لي هناك أهل، وناس، سامية تخبّئ لي «مرطبان مقدوس»، وتطلب منّي بطاقة خليويّ، كي تتّصل بحبيبها الّذي لا تعرف أخباره منذ لجوئها، ولو علم والدها أنّها تحاول أن تتّصل به ربّما أهدر دمها، هل فعلتُ؟ طبعًا، زوّدتها بجهاز ورقم وبطاقة، وتمّنيت لها الحظّ الوفير.

بعد يومين، أقبلت على الشّارع الّذي تقع فيه خيمة سامية، لأجد النّساء متجمهراتٍ حول الخيمة والفزع يسود المكان، «سامية ماتت» قطعت شرايين يدها، وانسحبتْ من هذه الحياة. شعرتُ بغثيانٍ، ودوار أجلسني مكاني، حملت رأسي بين كفّيّ، وبكيتُ كثيرًا.

غموض جديد يحيط بحياتي ممّا حدث لسامية، قبل يومين، كانت تُقبّل الأرض فرحًا حين استلمت جهازها المحمول منّي، وقالت لي بالحرف الواحد: «ربّي يجبر خاطرك»، هل خذلها الحبّ، أو قضى الموت عليه، أم قُتلت بدم بارد؟ كلّ الاحتمالات تموج في ذهني، لكنّي أُبعد أصابع الاتّهام كلّ مرّةٍ عن نفسي، حين جلبت لها هاتفًا قد يكون سببًا في مَصرعها.

أهرب من المخيّم، باتّجاه مأدبا، حيث الجدّة (ماري)، أداري رأسي في صوف وسادة بغرفة معيشة (ماري)، بين صور مريم العذراء، والصّلبان، وأهرب في نوم عميقٍ، أشاهد ذات إغفاءة أمّي تسلُق قمحًا وأمامها ساحات كبيرة من الورد، أشاهد سراجًا يمسك يدي في شارع من شوارع الهند، وجدّتي شكريّة تشكو من ألم في رأسها، وتطلب منّي أن أعطيَها ملعقة خشب وبشكيرًا لتربط رأسها، كوابيس متقطّعة توقظني، كلّ من شاهدت بالحلم كانوا أمواتًا، إلّا سراجًا الّذي يحتضر في ذاكرتي، لكنّه حيّ إكلينيكيًّا في قلبي.

قبل أن أغادر بيت (ماري)، كانت قد أشعلت شموعها، وصلّت من أجلي، لم تسألني ما بي، لكن بخبرة الجدّات المباركات أدركت أنّ خطبًا ما عبر يومي.

قرار السّفر عندي، يقع في نفس مستوى قرار شرب فنجان القهوة، قطعت تذكرتي إلى بيروت، وسافرت، حملت فقط حقيبة مستحضرات تجميلي، كان مكبس الرّموش أهمّ قطعةٍ منها، تلك الأداة الميكانيكية التي تعقف الرّموش المستقيمة، وتحيلُها سيوفًا، تمامًا كما يصنع صانع السّيوف سيفه المثاليّ. كنتُ محبطة، ومزاجي يتأرجح بين الحزن، والإنكار، لكنّي لا أغفل أداةً تستطيع أن تجعل عينيّ تبدوان أفضل، وأن تحمل مع جفوني المبطّنة شيئًا من رموشي.

اتّصلت بالمجنونة (لارين)، التي هبطت للتوّ في بيروت، طلبت منها أن نلتقيَ في مقهى (أماثيست)، التقيتها هناك. أخبرتها عن سامية الّتي قضت، وعن (ميشيل) البعيد، وعن قلبي العنيد الّذي ما زال يناورني من أجل أن أجيب رسالة سراج، شكوت لها كلّ هذه الفوضى، بدت (لارين) مهتمةً ومركزةً فيما أقوله، وحين أنهيت، بلغة العارفين المتمكّنين قالت: «أزمتك هي أزمة امرأة تملك دماغ رجل، سراج صيّاد، وأنت كذلك، لو تتخلّصين من عقليّة الظّفَر، والصّيد، لكنت اليوم أفضل، أنتِ لا تستطيعين العيش في منطقةٍ آمنةٍ، الخطر يناديكِ، وأنت مسلّمة به حدّ الإيمان».

كانت قد أنهت كلماتها، وأنا أنشئ رسالة بريد إلكترونيّ جديدةٍ.

«سراج، دعنا نلتقي غدًا، أو بعد غد»

بين أيقونة حذف، وإرسال، ظهرت صورة (ميشيل) في خيالي، (ميشيل)، لا يستحقّ أنْ أهدم كلّ ما بناه من هدوء روحيّ من أجل أن أعود لفوضى سراج، أزهارهُ الطريّة لن تحتمل خماسين جديدة من قسوةٍ تغمرني بفعل مرور سراج مجدّدًا، ولأنّي أعرف كم قلبي أحاديّ السُّكنى، كنت أعرف أن لو حدث وعدتُ لسراج، حينها سأقفل شبّاكي الذي يطلّ على (ميشيل).

في خيالي، اكتمل وجه (ميشيل) أمامي، سمرته المذهّبة الّتي كانت تذكّرني بالشّمس، عيناه الصغيرتانْ اللّتان تختفيان تمامًا حين يضحك، أناقته الّتي تملأ المكان هيبةً، حكاياه المصمّمة تمامًا لحياتي، ولمزاجي، صبره على تأرجح مزاجي، حنانه عليّ الّذي يجعله يفكّر في كلّ شيء أحبّه، اهتمامه بتفاصيل حياتي، سؤاله عن وزن حقيبة يدي كلّما أملتُ عنقي المُصاب منذ تورطي في «مهنة المصائب» كما أسمّيها، سؤاله لي كلّما أخبرته عن وجع الشّقيقة الّتي تشطر رأسي نصفين، «كم شربت كأسًا من الماء اليوم؟»، كان (ميشيل) الرّجل المثاليّ لحياتي، رغم أنّ دينه ليس على ديني، لكنّي كنت أدين بالإنسانيّة الأكبر محرابًا أوحدَ لكلّ دينٍ ومعتقد.

«سراج دعنا لا نلتقي، أو... لنلتقِ، وننهي المسرحية».

فكّرت بالجملة كثيرًا، ومتى أرسلها، لكنّ اتصال (ميشيل) قطع حبل جنوني، وأعادني لجادّة الهدوء. أخبرته أنّي في بيروت، وسأقضي العيد هنا في بيت (لارين)، لا أطيق العودة لبيتي المهجور بالأشرفية هناك، حيث أُصبت يومًا في قلبي في تلك الشقّة، وأيضًا أغراض جدّتي شكريّة توجعني، حتّى طريقة توضيب (داندي) للبيت، ما زالت كما هي، وهذا أمر يفوق طاقتي بالتّحمّل. أجابني والابتسامة تذوب في صوته: «لا عليكِ حبيبتي، الأمور بسيطة، أتركي الأمر لعقلك واستمتعي بالرّحلة، على فكرة لم أجد في أسفاري أجمل من وجهك، يدخل القلب بسرعة، ويغلق المفتاح، ويبتلعه. هُتان؛ أنتِ امرأة مخلوقة من دهشة، وطيبة، وطفولة». كانت أوّل مرّة أسمع منه كلمة «حبيبتي»، وهذا الإطراء المفاجئ، رغم أنّ كلّ ما بيننا كان يوحي بالحبّ على نارٍ هادئةٍ.

جدتي شكرية، كانت تقول بطريقتها: «الطّبخة لها روح، لو طهيت الأكل على نار عالية تموت الرّوح فيها، على نار هادئة كل شيء أطيب»، حاضر يا جدة ، وأنتِ بالسّماء الآن، أنا الآن أعدّ طبقًا من مشاعر، وحنين، وتناقض، أعدّه لي وحدي، ربّما يكون الطّبق في العشاء الأخير؛ حيث يخونني الحواريّون، حاضر يا مِيمة حاضر يا جدِة... على نارٍ هادئةٍ.

«تطايري مثل (نيرفانا)»

في جلسة تأمّل مع مدرّبة تايلندية في بيروت، كانت تقرأ تعاليم التّسامح في آخر الجلسة، طلبت منّي أن أسامح من أجلي، وأن أضع الشّمس في داخلي، وأطفو خفيفةً شفّافةً على وجه بحر واسع، فعلتها تمامًا، أدخلت الشّمس في مركزي، وطفوت على الماء لكن لم أستطع مسامحة سراج. أبقيته خارج التّأمل حتّى لفظت المدرّبة كلمة (النيرفانا)، وهي تصف مراحل تطاير الوجع والطّاقة السّالبة منّي، تذكّرت (النيرفانا) الخاصّة بقهوته، كان رجلًا متطرّفًا في الحبّ، وفي الغياب، وحتى بالقهوة كان يشربها في أعلى تراكيزها.

نتائج التّحقيق في مقتل سامية، تمّ نشرها كخبر صغير في الصّحف؛ حيث تبيّن أنّها ماتت مقتولة، وأنّ الشّرايين الّتي قُطعت كانت آخر مشهد من الجريمة، والدها وشقيقها الأكبر، أتمّوا المَهمّة بعد مراقبة هاتفها، اغتيال باسم الشّرف، يا للقرف!

قطعتُ سفري، وعدتُ فورًا إلى عمّان، لم أخبر سوى (لارين) برسالةٍ قصيرةٍ، ذهبت من المطار مباشرةً باتّجاه المخيّم، وصلت «الزّعتري»، وأنا بحالة إنهاكٍ شديدٍ، تذكّرت الّذين يصلون إليه مشيًا على الأقدام، وكيف يقطعون المسافات الصّحراويّة على أمل يدعى «حياة»، ذهبت لخيمة سامية، حيث كانت خاويةً تمامًا، إلّا من بعض قطع السّجاد، ودفاتر ممزّقة، كنتُ يومًا مع سامية بذات

الخيمة خربشنا فيها، ورسمنا بعضًا من القصائد على طريقة رسوم الأطفال، هنا كنّا نجلس، وهنا تناولنا يومًا «المقدوس»، الّذي كان يشبه «المقدوس الشّاميّ»، كان متقشّفًا تمامًا إلّا من قليلٍ من الفلفل الحارّ، هنا ناولتها الهاتف من داخل حقيبتي، وخبّأته حينها في صدرها، هنا قرأتْ لي قصيدةً لأمل دنقل:

«استريحي
ليس للدّور بقيّة
انتهت كلّ فصول المسرحيّة»

كانت سامية مميزة من بين معظم الفتيات الّلاتي التقيتهنّ في المخيّم، كانت تكتب، وترسم، وتجيد ضيافة الرّوح بكلّ ما لديها من قصائد محفوظةٍ، وكلمات جميلةٍ، تشبه وجهها الذي تشعر بالألفة حين تراه، عيناها العسليّتان الّلوزيّتان، وشعرها الأشقر المجعّد المخبّأ تحت وشاح رماديّ، فلتهنئي بالسّماء، ربّما هناك عدالة في لقاء القلوب المتحابّة. في أرضنا، تكون الفرص أكبر لالتقاء النّار بالدّم، والعظم، ووأد النّساء، «الله يحنّ على قلبك يا سامية، وليسامحني أنا الّتي لا أعرف كيف تصطادني الأقدار وتضعني في دربها».

غادرتُ المخيّم، وشيءٌ ما يناديني نحو (ماري)، وبيت الجدّة الرّوحيّة التي اخترتها، أخبرت السّائق أن يتّجه نحو مأدبا، بين الحصى البازلتي وكثبان الرّمال، وصلد الصّخور الّتي تحفّ الطّريق، كنت قد دخلت غفوتي قسرًا.

شاهدت نفسي في مدرستي الابتدائيّة في معان، أدخل امتحان رياضيّات، ولا أعرف شيئًا عنه، أترك الورقة فارغَة، أخرج من الصّفّ، لا أجد حقيبة مدرستي، أركض نحو باحة المدرسة، الكلّ اختفى، إلّا أنا وحدي، واللّيل يغمر المدرسة، والهلع يفيقني.

أتنفّس بعمق، وملامح مدينة مأدبا بدأت ترافقني من شبّاك السيّارة، تنفّست بعمقٍ كما علّمتني مدرّبة التأمّل، كانت تركّز على أن أشعر بنقطة التقاء الشّهيق بالزّفير، وتقوية الإحساس بها، يبدو أنّي أقترب من هذا.

وصلتُ بيت جدتي الجديدة (ماري)، كانت تسقي نباتات الفِناء، فرحتْ بي، وضمّتني والدّمعة تترقرق في عينيها المنحوتتين بين التّجاعيد، شعرها الأبيض كان بدفء القطن، كانت جاهزة دومًا لاستقبال الزوّار من الجيران، والأقارب، وحتّى أصدقاء (ميشيل) الّذين يبدو أنّي انتقلت من بينهم لأكون من الأقارب كما كانت تناديني «يا بنيّتي».

سألتني عن صحّتي، وعن أهلي، فأخبرها في كلّ مرّة أنّهم بخير، تستفسر عن كلّ شيء، حتّى عن أكلي، والّذي استدلّت هذه المرّة عليه من خلال إشارتها لوجهي، وأنّه أصبح «قدّ المعلقة»، حسب وصفها، وضحكنا قليلًا، ووصفتْ لي حماقة الجارات اللّاتي تصفهنّ بـ «الكَسولات»، ولا يحرصن على الذهاب للصلاة، وهي تشفق عليهنّ من غفلة الدّنيا.

رافقتها للكنيسة مشيًا على الأقدام، كانت هذه أوّل مرّة أحضر صلاةً في الكنيسة، رغم أنّي دخلتها مرارًا في إكليلٍ أو جنازة، كنت أحتاج أيّ مساحة صلاة أو تأمّل مع الله؛ الله الواحد الأحد الّذي هناك آلاف الطّرق للصّلة به، والّتي كنت أدين بمعظمها، المهمّ أن أسلّم قلبي لله، وأسلّمه أمري ووِجهتي، امتثالًا لكينونته العظمى، وأسراره المقدّسة.

أنهت (ماري) صلاتها بين التّراتيل، الّتي نزلت على قلبي مثل تربيتة أمّ، ضمّتني فورًا بعدها، وكانت تشعر بحماسٍ، وفخرٍ بوجودي، وكانت إيماءات عيونها وهي تصلّي توحي لي بعدد المرّات التي ذكرتني بها في صلاتها، وخلال إيقاد شموعها.

في قنُوتي، ذكرت سامية، ودعوت لها أن تكون الآنْ في السّماء الواسعة فراشة تطير بين الأزهار الأثيريّة، وأن تكون قرّت قلبًا، وسُرَّتْ روحًا في دار الخلود. ذكرت أمّي، وأبي، وجدّتي، وجدي وشقيقتي التي لم أرَها منذ سنوات. دعوت لهم جميعًا بأنْ يضيء الرّضا أرواحهم، وأن لا تصيبهم فجيعة في القلب، ولا مُصاب في الفقد.

أن تركب سيّارة (أوبل) قديمة، تقودها سيّدة ثمانينيّة في جنبات «جبل نيبو»، هذا مدعاة لأن تشعر أنّك دخلت حقبةً قديمةً من الزّمن؛ تأخذني (ماري) في رحلة مجهولة، أسلّمها أمري، وأرتمي في المقعد المجاور، أسمع أغنية لمحمّد عبد الوهّاب من شريطٍ قديمٍ،

توقّف عدّة مرّات، حين كانت (ماري) تتمسّك بمقود السيّارة بشكل جميل، وأثريًّ، ومضحكٍ قليلًا.

«جبل نيبو»، توقّفنا، طلبت منّي أن أرافقها، أمسكتُ يدها الّتي تشبه جذعًا حرًّا من شجر الزّيتون، مشينا ببطء إلى حيث يلتمع البحر الميّت، ويذوب في المدى البعيد، شاهدنا الغروب بهدوء، والدّمع يلتمع في عينيها، في جوف حلقي دمعات متردّدة، كنت أريد أن أرتاح من هذا الحمل الثّقيل الّذي تنوء بحمله روح شفّافة، لكنّي لم أفعل.

وفي منتصف حوارنا الصّامت، قالت لي (ماري) بلهجتها المأدباويّة، وجديلتها البيضاء الّتي تتلألأ فوق كتفها النّحيل: «بس القلِب المكسور يا بنيّتي هو اللّي بيحِنّ عليه الرّب، شو ما طال الدّرب»، إذًا ... حتّى (ماري) شخّصت ما بي من علّة، أنثى بقلب مكسور، و(ماري) تحاول أن ترمّم ما بقلبي من جروح حتّى في صلاتها!

«أنت لست وحدكِ، إذًا؛ أنتِ اليوم بجروحكِ وحتّى قروحكِ؛ أيقونة متحرّكة من الهمّ الجميل حتّى وأنت تتألّمين»، أناجي نفسي الّتي كانت أحوج من أيّ شخص لهذه المناجاة (السّولو)، كنت راضيةً تمامًا بأنّ حزني كان شفّافًا كما روحي، كما مياه نبع بكر لم تمسسه يد بشر، كنت إذًا تعافيتُ تمامًا، وبقي القليل من الإثارة في معرفة بعض الإجابات.

« أنتِ اليوم أجمل، أكمَل، أكثر قدرةً على الغوص في المحيط العظيم».

زهدتُ تمامًا في معرفة ما حصل بينْي وبين سراج، وأين هو الآن، هل يعيش على بقايا قصّتنا، يعيش حياةً أخرى مع امرأةٍ سرقتنا، أو أخرى كشفت هشاشة علاقتنا، أخذته العزّة بالرّجولة، وأن يبقى حرًّا طليقًا، أو حتّى لم أكن تلك الّتي تكمل روحه، أو ربّما، كانت الآفاق تجهّز لي قدْرًا طيّبًا من قلبٍ نفيسٍ لا يختلط فيه الغالي مع الرّخيص. أيقنْت الشّفاء التّامّ، حين توقّفت عن لهفة البحث عن الإجابات، وكانْت على مسافة من اتّصال، أو حتّى إرسال بريد إلكترونيّ لسراج، كان هذا آخر حوارٍ بيني وبين هُتان، وأنا في مقعد الطّائرة أطير مرّة أخرى للهنْد.

ثمّ ماذا؟

ثمّ تعيد صياغة ملامح وجهك، كي تتخلّص من آثاره فيك... تترك وجهك للرّيح... تتخلّص من كلّ ما كان يحبّه فيك، تلتفتُّ إليه كما يلتفت مسافر لآخر مشهدٍ من رحلةٍ لمدينةٍ سياحيّةٍ لم تكن على خارطة النّوايا، وتتابع الارتحال.

وعلى وجهٍ يرتسم في خيالك تغمض جفونك وتكتفي به، ما الحاجة للضّوء وأنت شمس أشرقت على حياتها؟